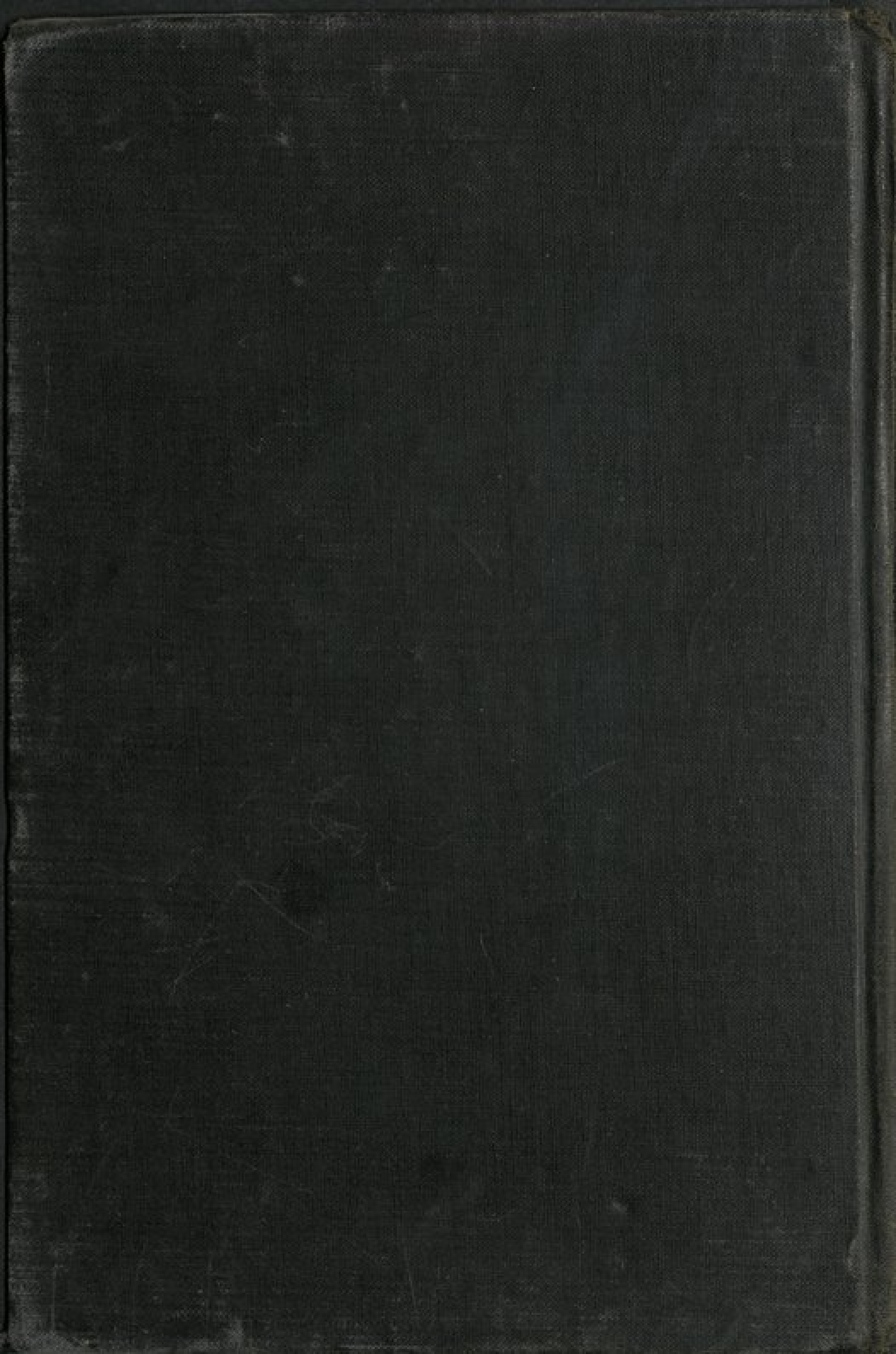
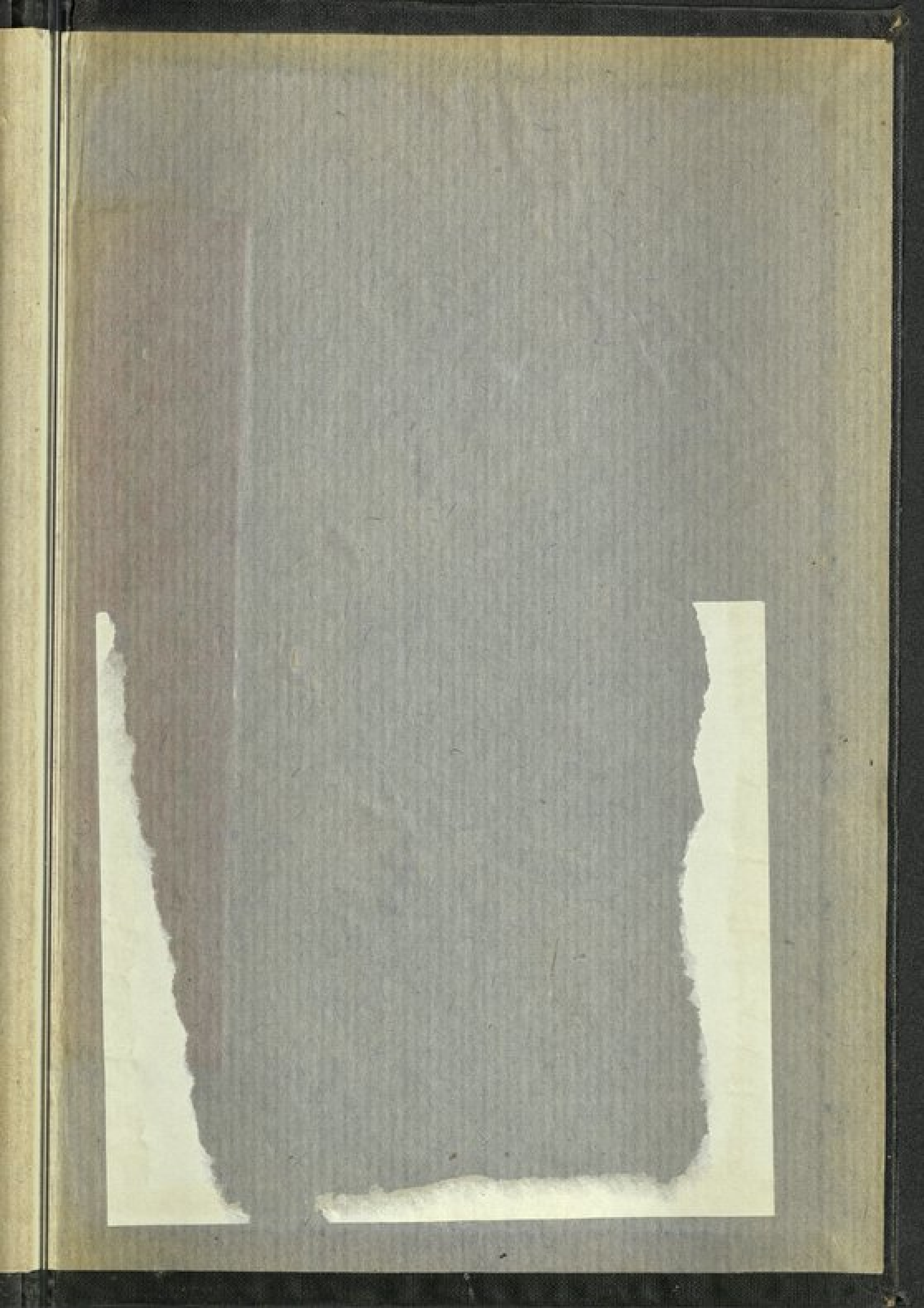
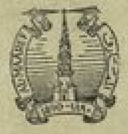




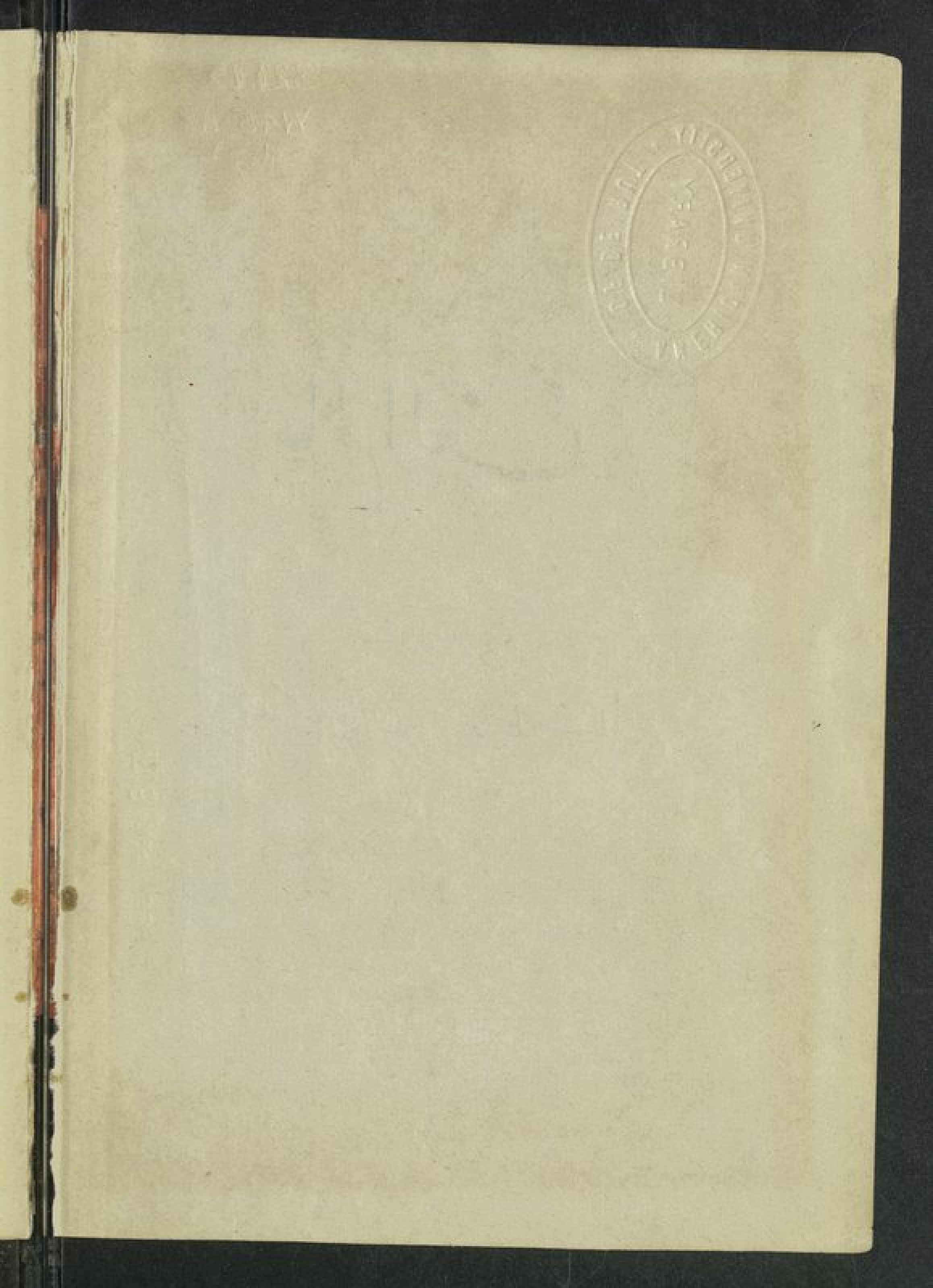
هـ . ج . ويلز

عالم الغد

نقله إلى العربية
عبد الحميد يونس و حافظ جلال



دار المعارف للطباعة والنشر بمصر



مقدمة

هـ . ج . ويلز ، أو "هربرت چورچ ويلز" « أديب علمى » إذا صح هذا التعبير ، ذلك لأنه استطاع فى براعة منقطعة النظير حتى فى قصصه الخيالى ، أن يزاوج بين مقتضيات العلم والفن جميعاً .

وقد عكف ويلز مذ نشبت الحرب الماضية على دراسة المشكلات الإنسانية بروح العالم وأسلوب الأديب ، وكانت نظرته تتسم بالشمول ، فالحياة عنده وحدة لا تتجزأ ، وإن تعددت صورها وتنوعت أشكالها ، والإنسان جنس كسائر الأجناس ، وإن تقدم عليها جميعاً حتى أصبح « تاج الخليقة » كما يقولون .

وأحس ما أصاب العالم من تفكك وانحلال ، فأصدر عام ١٩٣٩ كتابه المشهور « مصير الإنسان » الذى أخذ يدرس فيه المعضلات السياسية دراسة بيولوجية ، وصح عنده أن الإنسان قد فقد الملاءمة بينه وبين بيئته ، وإنه إذا لم يستعد هذه الملاءمة كان مصيره كمصير الزواحف العظيمة التى ظهرت ثم اختفت وتلك اللبونات المهولة التى لم يبق منها سوى هيا كلها الدوارس ؛ وأن العقل هو وسيلة الإنسان إلى التكيف مع البيئة المتجددة أبدا ينبغى أن يلجأ إليه وألا يلجأ إلى سواه .

ولما قدحت شرارة الحرب العالمية الثانية التى طالما حذر الإنسانية منها ، شحذ ذلك من عزمه وأعاده إلى التفكير فى « المشكلة الإنسانيـة » فأصدر ، والمدافع تدوى فى كل مكان ، كتابه الذى نقـدمه اليوم إلى قراء العربية .

وقبل أن يمضى فى رسم مقترحاته فى تنظيم العالم ، رأى لزاماً عليه أن يذكر المحاولات السياسية التى تنزع إلى حل مشكلة العيش أو مشكلة الحكم ونقدها نقداً صريحاً صادقاً لا يستطيعه سواه . . . نقد الفاشية والديموقراطية ، بل وحتى الاشتراكية لأنها لم تبرأ بعد من شوائب العصبية وأدران الشعوبية .

ولم يكن ويلز فى هذا الكتاب مثالياً أو خيالياً أو صاحب « مدينة فاضلة » يبشر بها وإن كان كذلك فى شبابه الأول ولـكنه واقعى ينشد الكمال الممكن بالتطور المتنور لا بالطفرة الهوجاء .

وإذا كان ويلز من الدعاة إلى العالمية الذهنية ، مقدمة للعالمية المادية ، فإن النقاد السياسيين يرونه انجليزياً فى نظراته ، وإن حاول أن يتحرر من انجليزيته ، أمريكياً فى أهدافه ، وإن لم يسلم الأمريكيون من نقده المرير . ومذهبه فى الجماعية العالمية إنما هو فى واقع الأمر المذهب الاشتراكى وقد أخضع للعقلية الغربية المتحررة فى نظره بل أخضع للعقلية الإنجليزية المتريثة المتدبرة التى تمقت التطرف والانقلاب .

وعلى الرغم من صدور هذا الكتاب إبان الحرب فلا يزال جديداً ،

ولا تزال الأفكار والمقترحات صالحة للبحث بله التطبيق ، ولعل خير وصف لآرائه التى بسطها فى هذا الكتاب قوله :

" هذه شذرات مختصرة عن تلك الحياة الواسعة التى يستطيع النظام العالمى الجديد أن يفتحها للبشر . ولن أطيل التفكير فيها حتى لا يقال عن هذا الكتاب إنه . . . خيالى . . . إنى لم أضع فيه شيئاً يجانب العقل أو يتعذر عند التطبيق . . . "

وبديهى أننا باختيار هذا الكتاب ونقله ، لا نعنى أننا نقول بكل ما قاله المؤلف ، وحسبنا أن نطلع قراء العربية على هذا المثال الفريد من الفكر السياسى فلعله يثير أذهانهم ويوسع آفاقهم ويرفع من مثلهم فى الحكم وفى الحياة ؟

عبد الحميد يونس   حافظ جلال

القاهرة فى أول فبراير سنة ١٩٤٦

فهرست

خاتمة عهـــد

أريد في هذا الكتاب أن أبين في إيجاز ووضوح متوخيا الفائدة ما أمكن لب ما ثقفته عن الحرب والسلم طوال حياتي . وليس في نيتي هنا أن أدعو إلى السلم ولكني سأضع أفكاراً وحقائق عامة لها خطرها وتكون نواة معرفة صالحة لمن يتابعون عملهم في إقامة سلام عالمي . ولست أريد أن أقنع الناس بتأييد سلام عالمي ، فحسبنا ما بذلناه في سبيل منع الحروب من إلقاء التصريحات وتوقيع القرارات فكل إنسان يرغب في السلام أو يزعم أنه يرغب فيه ، وليست هناك ثمة حاجة إلى أن نضيف حتى عبارة واحدة إلى هذا اللغو الكثير الذي لا خير فيه . وقصاراي أن أحاول هنا بيان ما يجب أن نفعله وما يجب أن نبذله في سبيل الحصول على سلام عالمي إذا صحت رغبتنا فيه .

ولم أكن أحفل كثيراً بالحرب والسلم حتى جاءت الحرب الكبرى أي الحرب العالمية الأولى . فمنذ ذلك الحين وأنا أكاد أتخصص في هذه المسألة — وليس من اليسير أن يسترجع الإنسان ما يمر بعقله من حالات يتجاوزها يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة ولكني أذكر أنه في السنوات العشر التي سبقت عام ١٩١٤ كنت أعتقد ويعتقد معي معظم أبناء

الجيل — فى الأمبراطورية البريطانية وأمريكا وفرنسا بل وفى العالم المتمدن بأسره — أن الحرب لابد زائلة .

كذلك خيل إلينا . كانت فكرة محببة ومن ثم سارعنا إلى قبولها ، فتصورنا أن الحرب الألمانية الفرنسية عام ١٨٧٠ — ١٨٧١ والحرب الروسية التركية ١٨٧٧ — ١٨٧٨ كانت خاتمة المنازعات بين الدول العظمى وأن هناك توازناً دولياً مستقراً يتعذر معه نشوب حرب كبيرة أخرى . فقد وقف تحالف ثلاثى فى وجه تحالف ثنائى ولم يكن لأحدهما ما يبرر مهاجمة الآخر واعتقدنا أن الحرب تتقلص فتصبح مجرد حملات على تخوم حضارتنا أو قل تصبح ضربا من أعمال رجال الحدود .

وكانت تقوى بين الدول فيما يظهر أواصر الاتصال الودى — عاما بعد عام — فظل السلام بينها لا يعكر صفوه معكر .

والواقع أنه قد كان هناك تسابق معتدل فى التسليح . . . معتدل بالقياس إلى ما وصلت إليه معداتنا الحديثة . وكانت صناعة التسليح صناعة نامية ناشطة . ولكنا لم ندرك ما سيؤدى إليه ذلك على الوجه الصحيح . . . وكنا نميل إلى الاعتقاد بأن الجنوح العام إلى التعقل سيقوى بحيث يمنع هذه المدافع المتكاثرة من الانطلاق والإصابة . وكنا نتمادى فى الابتسام كلما نظرنا إلى الملابس العسكرية ، أو حضرنا استعراضاً أو مناورة . . . كانت ألاعيب يقدسها العصر وشارات ملوك وأباطرة . كانت ضرباً من ضروب الاستعراض لا تقوم فى الواقع بقتل أو تخريب .

وتنطبق هذه الصورة تمام الانطباق بلا مبالغة على ما كان عليه الناس عام ١٨٩٥ أى منذ خمسة وأربعين عاماً من طمأنينة امتدت بمعظمنا إلى عام ١٩١٤ — وفى هذا العام لم يكن أحد دون الخمسين فى بريطانيا وأمريكا قد رأى شيئاً من الحرب فى بلده .

وكان العالم قبل عام ١٩٠٠ يسير بخطوات ثابتة فى سبيل توحد عملى هادىء — فقد كان الإنسان يستطيع أن ينتقل فى معظم ربوع أوربا بغير جواز سفر . وأخذ اتحاد البريد ينقل رسائله فى أمن ، دون أن يطلع عليها أحد من شيلى إلى بلاد الصين — أما النقد فيعتمد على قاعدة الذهب لا تتذبذب قيمته إلا قليلا ، وظلت الأمبراطورية البريطانية المتسعة الأطراف تحتفظ بسننها فى حرية التجارة — والمساواة فى المعاملة والترحيب بجميع الوافدين من أنحاء المعمورة ، أما فى الولايات المتحدة فأنت تسير أياماً دون أن يطالعك رداء عسكرى . فاذا وازنا هذا العهد بأيامنا هذه وجدناه ظاهر الأمر عهد يسر ودعة . وبخاصة عند الأوربيين وأهل أمريكا الشمالية .

غير أنه وراء صناعة التسليح النامية المطردة المنذرة بالشر هذه كانت هناك عوامل أخرى أعمق تعمل عملها فى إثارة الفتنة من مرقدها . ولم تنس وزارات الخارجية فى مختلف الدول سنن التنافس التى شاعت فى القرن الثامن عشر وكان القواد وأمراء البحر يفكرون وهم بين العداوة والحسد فى أسلحة أشد فتكا فانسابت صناعة الصلب برفق بين أيديهم — ولم

يكن عند ألمانيا من الصناعة ما عند الناطقين بالإنجليزية — فطمحت إلى الجوزاء واشتد التنافس على تقسيم مواطن المواد الخام فى أفريقية وشق البريطانيون من فزعهم الدائم من روسيا لاتساع ممتلكاتهم فى الشرق فراحوا يفننون اليابان ليجعلوا منها دولة إمبراطورية عصرية . وذكروا كذلك « ماچوبا » وانزعجت الولايات المتحدة من اختلال الأمن فى كوبا ورأت الخير كله فى تغيير دفة الحكم فى الممتلكات الأسبانية الشاسعة الواهنة . . . وعلى هذا النحو صارت مباريات السياسة الدولية ولكنها كانت بعيدة عن السلام العام . وقد نشبت حروب وعدلت حدود بيد أنها لم تحدث إضطراباً أساسياً فى الحياة المتحضرة العامة . ويبدو أنها لم تكن لتهدد روح التسامح والتفاهم المتزايدين فى أى مظهر أساسى . وأخذت الأزمات الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية تغلى مراجلها تحت سطح الحياة السياسية الهادئة . إلا أنها لم تكن تنذر باضطراب ما . وكانت تدور بالأذهان فكرة القضاء على الحرب أو تصفية الجو مما علق به من شوائبها بيد أن هذه الفكرة لم تكن ملحة — وأنشئت محكمة «الهاى» وتضاربت الآراء فى التحكيم والقانون الدولى . وظن كثيرون أن شعوب الأرض استقرت فى أوطانها وخضعت لنظام أدنى إلى السلم منه إلى الحرب . وإذا كانت هناك ألوان من الظلم الاجتماعى فأخلق لها أن تزول على الأيام بأذكاء روح التسامح .

وفى تلك الأيام ، ولعلنا لم نجاوزها بأكثر من نصف أعمارنا — لم

يخطر ببال أحد التفكير فى إدارة عالمية . ولاح للجميع أن تمزيق العالم إلى دول كبيرة ودول صغيرة هو أحكم طريقة عملية فى تدبير شؤون الإنسان . وكانت المواصلات عسيرة يتعذر معها قيام لون من ألوان السلطان المركزى وقد رأى الناس فى كتاب « حول العالم فى ثمانين يوما » عند صدوره منذ سبعين سنة ، إسرافا فى الخيال العالمى ذلك أنه كان عالما بلا مسرة أو مذياع — لم يكن فيه أسرع من قطار السكة الحديد ولا أشد فتكا ، من قنبلة .H.E القديمة . وكانا فى نظر الناس من الأعاجيب فما أيسر أن تدبر شئون هذا العالم القائم على التوازن الدولى فى أوطانه المنفصلة بعضها عن بعض، وما دام الناس لا تتهيأ لهم الأسباب الكافية ليهجم بعضهم على بعض ويؤذى بعضهم البعض — فقد ظنوا أنه لا خطر من الوطنية المتأججة واستقلال الدول المنفصلة إستقلالا تاماً .

وكانت الحياة الاقتصادية تدبر بوساطة أصحاب الأعمال الحرة وأصحاب الأموال غير المسئولين وكانوا بمقتضى ملكياتهم الخاصة يستطيعون أن ينشروا معاملاتهم الخاصة الموحدة فى شبكة لا تحتفل كثيراً بالحدود أو عواطف الوطنية والجنس والدين . وكانت « المعاملة » أدنى إلى حكومة عالمية منها إلى نظم سياسية . وتخيل كثيرون وبخاصة فى أمريكا أن المعاملة قد توحد العالم بصفة نهائيـة بينما تقبع الحكومات فى خضوعها لهذه المعاملات المتشابكة .

ونحن نستطيع فى هذه الأيام أن نكون حكماء بعد أن وقعت الواقعة ،

ونستطيع كذلك أن نرى عوامل التخريب تستجمع من قوتها تحت السطح الهادئ . بيد أن هذه العوامل كانت قليلة الشأن فى مجرى الحوادث منذ نصف قرن أى عند ما تكونت آراء الجيل الماضى التى لا زالت تسود الحياة السياسية — والتعاليم السياسية التى أخذها عنهم أخلافهم . وقد نشب الصراع بين التوازن الدولى والأفكار الناشئة من المعاملة الخاصة التى عمرت نصف قرن من جانب و بين عوامل التخريب الآخذة فى النمو من جانب آخر . فحلت بنا كارثة من أفدح الكوارث وأدت هذه الأفكار مهمتها على خير وجه فى أيامها ، ولا يزال من المحتم على الحكام والمعلمين والسياسيين عندنا أن يواجهوا الحاجة إلى تكييف آرائهم وأساليبهم ، وشروحهم بحيث تتناسب وهذه العوامل المخربة — التى أهمل شأنها فى يوم من الأيام والتى تعمل الآن على تقويض نظامهم القديم من أساسه .

فمن أجل هذا الاعتقاد بزيادة حسن النية بين الأمم — ومن أجل الرضا الشامل بالأشياء كما هى — أثار إعلان الألمان للحرب عام ١٩١٤ عاصفة من الازدراء ، فى جميع أنحاء العالم المطمئن الوادع . فشعر الناس أن قيصر الألمان قد عكر صفو ندوة العالم بلا جدوى . ونشبت الحرب ضد « آل هوهنزلرن » فوجب أن يطردوا خارج الندوة وأن تدفع غرامات معينة فتعود المياه إلى مجاريها كان هذا هو رأى البريطانيين عام ١٩١٤ . وأن تسوى مسألة هذه الحروب التى نشبت فى غير أوانها تسوية نهائية بميثاق مشترك من الأعضاء الأكثر احتراماً عن طريق عصبة الأمم . ولم

يكن هناك ثمة إدراك للعوامل الفعالة فى هذه الحروب من جانب ثقات السياسيين الذين وقعوا معاهدة الصلح . فكانت فرساى وملحقاتها .

وأخذت هذه العوامل الهدامة فى النمو والتكاثر عشرين سنة تحت هذا الاستقرار الظاهرى السطحى ولم يصمم أحد مدى عشرين سنة على مهاجمة هذه المشكلات التى تواجهنا من جراء هذا النحو . وكانت عصبة الأمم طوال هذا العهد محظرة للفكر الحر فى العالم .

فاليوم تنشب الحرب للتخلص من أدولف هتلر ، الذى حل محل آل هوهنزلرن على المسرح فقد اعتدى هو الآخر على قانون الندوة ووجب أن يطرد منها . وتخوض الأمبراطورية البريطانية هذه الحرب ، ولنسمها حرب تشمبرلن هتلر — للأسباب نفسها التى خاضت من أجلها الحرب الماضية . ذلك أنها لم تعلم شيئاً ما ولم تنس شيئاً ما . ولا تزال مصرة على إغفال أى مشكلة أساسية .

أضف إلى ذلك أن عقول الطبقة الحاكمة النهائية ذات الحول والطول تأبى أن تسلم بالرأى القائل إن عهدهم قد مضى . وإن التوازن الدولى ووسائل المعاملة الحرة لا يمكن أن تستمر ، وإن هتلر — مثله مثل آل هوهنزلرن — ما هو إلا قرحة مزعجة فى وجه عالم ينفطر من الألم . ولن يكون الخلاص منه ومن حزبه النازى الا أكثر من تدليك بثور الحصبة المندملة فإن المرض ستظهر أعراضه بفورة أخرى . وإنما الذى يجب أن

يزول هو نظام الفردية الوطنية والمعاملة الغريبة الشاذة فهو آفة العالم . يجب أن يصلح من أساسه أو يستبدل بغيره .

وليس هناك من أمل فى أن يتدخل هذا النظام السهل المبدد الخطير مرة أخرى فالسلم العالمى يعنى كل هذه الثورات التى تحدثنا عنها . وقد أخذ كثيرون منا يعتقدون أنه لا ينطبق على أقل من هذا المدلول .

ومن ثم فإن أول ما يجب أن نفعله لنكشف عن المشكلات الأساسية الخاصة بالسلام العالمى هو أن ندرك أننا نعيش فى خاتمة عهد محدد من عهود التاريخ هو عهد الدول ذوات السيادة أو كما كنا نقول فى العقد التاسع من القرن الماضى «إننا نعيش فى عصر انتقال» وقد لمسنا شيئاً من حدة هذا الانتقال . هو مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية قد تؤدى إلى ، كما أحاول أن أبين لك : إما إلى ابتكار وسيلة جديدة من وسائل العيش لجنسنا البشرى وإما إلى حقبة تطول أو تقصر يسودها الجور والبؤس والتخريب والموت وإبادة الجنس البشرى ولست أسوق هذه العبارات لأغراض بلاغية ولكنى أعنى ما أقول تماماً وهو فنـاء مشئوم للجنس البشرى .

هذا هو الموقف الذى يواجهنا . وليس الذى نحن بسبيله هنا حديثاً تافهاً من اللغو السياسى . ففى اللحظة التى أسطر فيها هذه الكلمات يقتل آلاف من الناس ويجرحون ويطاردون ويعذبون وتساء معاملتهم — ويدفع بهم إلى أقسى حالات القلق والانزعاج . ويحطمون معنويا وعقلياً

ولا يلوح الآن شيء فى الأفق يوقف هذا التيار الجارف ويحول بينه وبين الوصول إليك وإلى عشيرتك . . . . . إنه يقترب منك ومن عشيرتك بخطى سريعه . وما دمنا كائنات عاقلة متبصرة فليس أمام أحد منا الآن إلا أن يوقف على مسألة السلام العالمى هذه اهتمامه وأن يكرس لها حياته فنحن إذا فررنا من مواجهتها فانها تقص أثرنا حتى تلحق بنا علينا إذن أن نواجهها وأن نحلها أو تقضى علينا . فهى مسألة ملحة لها خطرها .

مداولة عامة

وقبل أن أمضى فى بحث ما أسميته العوامل المخربة فى النظام الاجتماعى الحاضر أرى من الواجب أن أبين ضرورة أساسية لكل بحث جرىء حر فى هذه النظم الممسك بعضها بخناق بعض والسنن الآخذة فى التصدع التى نقضى بينها حياتنا المزعجة المضطربة . ويجب ألا يكون هناك ثمة حماية للزعماء أو النظم من النقد المتفحص اللاذع متذرعين بأن وطننا يخوض أو سيخوض غمار حرب أو بأية ذريعة أخرى . فينبغى أن نتحدث فى صراحة وإسهاب ووضوح . فالحرب عارضة أما الحاجة إلى الإصلاح الثورى فجوهرية . ولعل أحدنا لايدرك تمام الإدراك بعضاً من أهم المسائل الحيوية التى تواجهنا ، فليست عقولنا من الرجاحة بحيث تنجو من التخليط كما أن الشقشقة البارعة والروايات الناقصة غير المباشرة التى تعد بعد أن يطلع عليها رقيب ستشوش أفكارنا وأفكار أولئك الذين نريد التفاهم معهم ، مما يؤدى إلى إمحال كل محاولة إصلاحية وفشلها .

فنحن نريد أن نتحدث وأن نكشف حقيقة آرائنا ومشاعرنا لا إلى أبناء وطننا فحسب بل إلى الحلفاء والمحايدين وإلى القوم الذين شهروا السلاح فى وجوهنا بنوع خاص . ونحن نطمع فى أن يبادلونا إخلاصاً

بإخلاص ولن يكون السلم سوى توازن غير محقق تنمو فيه عداوات جديدة حتى نتوصل إلى وضع قاعدة مشتركة للآراء العامة ومن المجمع عليه أن هذه الحرب تحتاج إلى مناقشة واسعة النطاق فكل فرد فى العالم يجب عليه أن يساهم فى هذا البحث ما استطاع إليه سبيلا . فهى شىء أهم بكثير من الحرب الحقيقية . ومما لا يمكن السكوت عليه أن نفكر فى هذه الكارثة العالمية التى لا تنتهى فقط بعقد « مؤتمر » من السياسيين غير المتصلين بالعالم وجلسات سرية « وتفاهم » يشوبه اللبس والغموض . .

الحق إن هذا لا يمكن أن يحدث مرتين . ولكن ترى ما الذى سيحول بينه وبين الحدوث مرة ثانية ؟ فمن السهل أن نبين الحدود المعقولة للرقابة فى بلد محارب . ومن الجلى أن معلومات تفيد العدو فائدة ما يجب أن تراقب وأن تخمد بشدة . ولا يقتصر الأمر على المعلومات المباشرة مثلا ، بل يتعداها إلى التلميح والإفشاء غير المقصود لمواضع السفن وحركاتها ، والجنود ، والمعسكرات ومخازن الذخيرة ، والبيانات الكاذبة عن الهزائم والانتصارات والنقص المتوقع أو المنتظر فى الزاد والعتاد وما إلى ذلك مما يؤدى إلى إحداث الفزع الشامل والجنون وما إليه . بيد أن الأمر يختلف مظهره عن ذلك اختلافا تاماً إذا كان المقصود منه البيانات والحقائق التى قد تؤثر فى الرأى العام داخل الوطن وخارجه والتى قد تعيننا فى الوصول إلى عمل سياسى صحيح سليم . ومن مظاهر الحرب البغيضة فى هذه الظروف الحاضرة ظهور طائفة كبيرة من الناس جد بارعين ، لهم الحول

والطول ، منفعلين ، مغرورين ، متأهبين للكذب وتشويه الحقائق ، أو نصابين على وجه العموم يستحدثون حالات الرضا والقناعة والمقاومة والإزدراء وطلب الثأر والريبة والاضطراب الذهنى ، أو بعبارة أخرى يستحدثون الحالات العقلية المؤدية إلى إحراز نصر نهائى . هؤلاء الناس مشغوفون بتحريف الوقائع وطيها ، لأن ذلك يكسبهم الشعور بالسلطان وهم إذا لم يستطيعوا الخلق فهم يستطيعون على الأقل المنع والإخفاء . وهم يحشرون أنفسهم فى زمرتنا بخاصة وزمرة الذين نحاربهم ليفسدوا كل توفيق مستطاع . ويجلسون تملأهم نشوة السلطان العارض ، مترفعين عن متاعب النضال وأخطاره يضربون على أوتار خيالية فى عقول الناس .

ويقال إن التفكير العام فى المانيا خاضع لرقابة الدكتور جوبلز ، أما فى بريطانيا العظمى فقد دعينا نحن معشر الكتاب لنضع أنفسنا تحت تصرف ما يسمى بوزارة الاستعلامات أو بعبارة أخرى تحت تصرف أفراد غامضين لا يمثلون سوى أنفسهم ونكتب بمشورتهم ويمثل موظفون من المجلس البريطانى ومن أقطاب حزب المحافظين أماكن الصدارة فى وزارة الاستعلامات هذه . وهذه المؤسسة الصغيرة العجيبة القليلة الإعلان عن نفسها التى ذكرتها الآن وهى من إنشاء اللورد لويد كما أنبئت وأعنى بها المجلس البريطانى ، ترسل إلى الخارج بعوثا من النساء الأنيقات والكتاب وغيرهم من المثقفين ليحاضروا ويفتنوا ويستحوذوا على تقدير الأجانب للسمات البريطانية ، والمشاهد البريطانية والفضائل السياسية

البريطانيـة وهلم جرا ... ويعتقدون أن ذلك يحقق بوسيلة ما غرضاً ما .
وقد سار هذا قدماً فى غير جلبة أو مضايقة . ولعل هذا النموذج البريطانى
يقدم ضمانات غير رسمية ومن المحتمل أيضاً أن يسبب ضرراً إيجابيا قليلا .
ولـكن ينبغى ألا يستخدم هؤلاء الأفراد مطلقاً . فـكل دعاية حكومية
تناقض روح الديموقراطية فى أساسها . والتعبير عن الآراء والأفـكار
الجماعية يجب أن تكون خارج نطاق الحكومة تماماً ويجب أن تكون من
عمل أفراد أحرار تعتمد كفاءتهم على مسايرة الرأى العام وتأييده . ولا بد
لى فى هذا أن أصحح رأيى فى اللورد لويد فقد انسقت إلى الاعتقاد بأن
المجلس البريطانى كان مسؤولا عن المستر تيلنج مصنف كتاب محنة
النصرانية وقد أفضت فى التحدث عنه فى كتابى مصير الإنسان وأنا الآن
أسحب كلامى هذا فقد علمت أن المستر تيلنج قد أرسل فى رحلاته بواسطة
صحيفة كاثوليكية ، وأن المعهد البريطانى كان بريئاً منه براءة تامة وليس
عمل وزارات الاستعلامات والدعاية هذه تحويل هؤلاء الـكتاب
والمحاضرين والمحدثين إلى إنتاج ذلك الهذر غير البارع الذى سيشوش
عقل الجمهور ويضلل الأجنبي الطلعة ؟ بل إنها تنزع إلى خنق كل رأى
حر مستقل قد يعترض خططهم السرية فى إنقاذ العالم .

ومن العسير أن نحصل فى أى مكان على الأذاعة الملائمة الواسعة لبحث
جرىء فى النظام الذى يسير عليه العالم والعوامل السياسية والاقتصادية
والاجتماعية التى تدفعنا فى تيارها . ولا يعود هذا إلى أعمال الإخماد

المتعمدة بقدر ما يعود إلى الفوضى العامة التى تردت فيها شؤون الإنسان نعم ، تكاد لا توجد فى عالم الأطلنطى بادرة من بوادر هذا التجسس على الفكر التى تقضى قضاء تاماً على الحياة العقلية للرجل الذكى الإيطالى أو الألمانى أو الروسى فالفرد منا لا يزال يستطيع أن يفكر فيما يشاء ، وأن يجهر بما يشاء ، وأن يقول مايشاء ولكن هناك على الرغم من ذلك صعوبة متزايدة فى سبيل الحصول على آراء جريئة غير سلبية عن طريق السمع أو القراءة . والصحف تخشى أن توجه إليها أية تهمة مهما صغرت ، والناشرون مع استثناء بعض الأجرياء كناشرى هذا الكتاب — مسرفون فى الحذر ، وهم ينذرون بعدم الخوض فى هذا الموضوع أو ذاك بنوع خاص . وهناك ألوان مبهمة من المصادرة ومصاعب تجارية تعوق انتشار الأفكار العامة إنتشاراً واسعاً بوسائل لا عداد لها ولست أقصد بهذا وجود مؤامرة منظمة لإخماد البحث والمناقشة ، ولكن أقول إن الصحافة والمكتبات ودور النشر فى بلادنا الآخذة بأسباب الحرية تقوم على نظام جد سقيم ، غير واف بالغرض فى إنتاج الأفكار وتوزيعها

والناشرون لايصدرون شيئاً إلا للربح المضمون ، وسيعجب منك الوراق إذا أنت أخبرته بأنه جزء من كيان العالم الثقافى لأن كل همه أن يقيد فى دفاتره أكبر عدد ممكن من طلبات خير البائعين وأن يربح عمولة لا يضارعه فيها أحد تاركاً وراءه كل ما عدا ذلك من المقاصد السامية . إنهم لا يدركون أن من الواجب عليهم أن يقدموا خدمة الجمهور على الربح

فما من باعث يدفعهم إلى هـذا ولا هم يعتزون بكرامة عملهم ومنطقهم هو منطق دنيا الاستغلال والصحف مشغوفة بنشر مقالات جريئة فى ظاهر أمرها عن التحرر التقليدى ، وطنية فى الدعوة إلى السلام مسرفة فى تنميق العبارات فى وسائل تحقيقه ، والآن ونحن فى حالة حرب فإنها ستنشر أشنع الهجمات على العدو بحجة أن مثل هذه الهجمات تحافظ على روح الأمة المحاربة . ولـكن كل فكرة ثورية واضحة عامة لا تجرؤ على إذاعتها مطلقاً . وفى هذه الظروف المعوقة لا توجد فى موضع ما ، ثمة مناقشة صحيحة لمظهر العالم أيا كان . ولا تفضل الديموقراطيات الدكتاتوريات فى هذه الناحية إلا قليلاً . ومن ثم فمن الهذر أن نطلق عليها ربوع النور فى محاربة الظلام .

وهذه المناظرة الخطرة فى موضوع أعادة بناء عالم أهم وأجدى من الحرب نفسها ، ولا توجد وسائط وافية بالغرض للجهر بأى رأى سمح عام ونقده وتنقيحه . وهنا جمجمة بأفكار إنشائية لا غناء فيها ولا جدوى لها . ولـكن هنـاك نزوعاً ضئيلا إلى البحث المدعم ، واتصالات قليلة حقة ، وتقدماً غير واف ومن ثم فلم يقرر شىء ولم يرفض شىء لأنه فاسد ولم يكتسب شىء دائم ويبدو ألا أحد يستمع لما يقول غيره ذلك لأنه لا وجود لنزعة الاستماع لهؤلاء النظريين ، فلا يوجد مستمع له خطره يقول فى شدة وعناد « إن ماقاله ا » يبدو مبهماً : وهل يستطيع ب ، ح بدلا من هذه الشقشقة الفارغة أن يقولا لنا بالضبط فيما يختلفان عن ا ولماذا ؟ هانحن

الآن قد توصلنا إلى الحقيقة المشتركة بين ا ، ب ، حـ ، ء . وها هو هـ يقول شيئاً . فهل يتكرم ببيان العلاقة بين ما يريد أن يقول وما قاله ا ، ب ، حـ ، ء ؟ »

لكن ليس فى الأفق بوادر على ظهور رأى عام عالمى قوى الملاحظة والنقد بل توجد قلة من الناس هنا وهناك تقرأ وتفكر فى موضوعات متفرقة . وهذا هو كل ما يقوم به عالمنا من التفكير لمواجهة الكارثة الشاملة . أما الجامعات بارك الله فيها ... فهى جامدة صامتة .

فنحن فى حاجة إلى أن نخفف عن عقولنا ونحن فى حاجة إلى مبادلات صريحة إذا أردنا أن نحصل على تفاهم عام . علينا أن نضع رأياً واضحاً لنظام العالم الذى نفضله على الفوضى الحاضرة علينا أن نحل أو نوفق بين خلافاتنا حتى نولى وجوهنا فى اطمئنان شطر سلام عالمى يمكن تحقيقه والجو ملىء بمقترحات أنصاف الأذكياء — لا يصغى أحد إلى الآخر فيه ويحاول معظمهم وقد نفذ صبرهم ، إسكات الآخرين ، والآلاف من الأغبياء على استعداد لأن يصفوا لنا علاجا كاملا لمشكلاتنا العالمية . ولم يدرك الناس جهلهم وقصورهم اللذين نشأت منهما هذه الحاجة الملحة إلى أوضح بيان لماهية المشكلة ، ودراية متصلة شاملة للخلاف فى الرأى ، وبحث جدى لكل احتمال من احتمالات الموقف مهما بدا لنا غير ملائم لأول وهلة .

ومن أجل هذا فأنا أجعل الحرية فى القول والجرأة فى النشر مقدمة على

أى شيء آخر عند البحث فى الوسائل المؤدية إلى السلام العالمى ، فهما خير ما نحارب فى سبيله ، وهما أساس كرامتك الشخصية . فإن واجبك الأول باعتبارك من أبناء هذا العالم أن تبذل قصاراك فى سبيل تحقيقهما وليس عليك أن تقاوم الاضطهاد فحسب ،بل يجب عليك أن ترفع أستار العماية أيضاً . وإذا ما وجدت الكتبى الذى تبتاع منه كتبك والصحفى الذى تستقى منه أخبارك يحجمان عن توزيع أى ضرب من النشرات ، حتى ولو كانت هذه النشرات تخالف رأيك مخالفة صريحة ، فينبغى أن تشهر سلاح المصادرة نفسه فى وجه هذا المخالف وتبحث عن كتبى آخر وصحفى آخر ، يقدم ما تريد قراءته . وعلى المواطن المرجو فى هذا العالم أن يساهم فى مؤسسة كالمجلس الوطنى للحريات المدنية ، وعليه أن يستغل كل وسيلة تتيحها له مكانته فى منع الجور على حرية القول ، وعليه أيضاً أن يعود نفسه الاعتراض على الترهات فى أدب مقرون بالحزم ، وأن يجهر فى وضوح بلا خوف أو وجل ، بكل ما يدور فى خلده ، وأن ينصت فى غير خوف أو وجل أيضاً إلى كل ما يلقى إليه ، ذلك لكى يزداد علماً بالحقائق بفضل الاستيثاق منها أو تصحيحها . وأن يجتمع الإنسان بغيره للبحث والمناقشة والتفكير والتنظيم ، ومن ثم كانت الفريضة الأولى على الإنسان العاقل — هى الإفادة من موهبة التفكير .

إن عالمنا هذا يسير إلى التهلكة . فمن الواجب أن يعاد بناؤه ، ولن تكون أعادة بنائه هذه مجدية إلا فى النور . وما ينقذنا إلا عقل نير حر

صريح . ومثل هذه المتاعب والعراقيل التى تقف فى سبيل تفكيرنا فى الإضرار كمثل غلمان يضعون العوائق فى وجه القطار أو ينثرون المسامير فى طريق سيارة

هذه المناظرة العالمية الخطيرة يجب أن تستمر ويجب أن تستمر الآن . فهذا هو وقت التفكير والمدافع تدوى . ومن الحماقة الكبرى أن نقول كما يقول كثير من الناس بوجوب إنهاء الحرب أولا ثم عقد « مؤتمر عالمى » للتبشير بوجه جديد فما أن تنتهى الحرب حتى ينتهى الجدل العالمى الحقيق وتخمد المناقشة فسيجتمع الزعماء والساسة فى جو مشبع بروح المناقشة ويوصدون الأبواب بينهم و بين العالم الخارجى ، ويعيدون تمثيل .. فرساى بينما يقف العالم الصامت مشدوها ينتظر ما تنكشف عنه أعاجيبهم .

عوامل الهدم

ولنأخذ الآن فى بحث عوامل الهدم التى نقلتنا من الحلم الذى تراءى لنا فى القرن التاسع عشر ممثلا فى صورة شبكة عالمية متينة من دول آخذة بأسباب الحضارة يجمعها تبادل اقتصادى ومالى يزيد على الأيام إلى يقظة تامة لا تتحقق فيها مثل هذه الأحلام ، ومن ثم كان لزاما على كل رجل ذكى الفؤاد أن يضع خطة العالم كما ينبغى أن يكون . ومن الأهمية بمكان عظيم أن يعرف المرء ماهية عوامل الهدم هذه وألا يغفل عنها ، فإدراك هذه العوامل يضع يدك على متاعب العالم الحاضر . وإغفالها ولو إلى لحظة يسيرة يتجاوز بك الحقائق الجوهرية إلى الأعراض التافهة .

وأول طائفة من هذه العوامل التى درج الناس على التعبير عنها بـ « إلغاء المسافة » و « تبدل المقاييس » فى أعمال الإنسان . وقد بدأ « إلغاء المسافة » هذا قبل أكثر من قرن . ولم تكن نتائجه الأولى هدامة على الإطلاق . فقد ربط بين أطراف الولايات المتحدة الأمريكية ، ولولاه لرثت حبالها ، وتفككت أوصالها . وساعد الأمبراطورية البريطانية المتشعبة الأطراف على أن تنشر صلاتها حول الكرة الأرضية بأسرها . ولم يظهر الأثر الهدام لإلغاء المسافة إلا مؤخراً . فلنستوضح مدلوله الأساسى .

فقد كانت أسرع وسائل المواصلات فى القرون المتباطئة وكأنها لا تنتهى . هى الجواد يركض على الطريق العام ، والرجل العـدّاء ، والمركب الشراعى المتقلب ، تتحكم فيه الرياح وهناك الرجل الهولندى ينزلق بزحافته على القنوات ، بيد أن هذا كان ضرباً شاذاً من السرعة لم يعم استعماله . وتقيدت حياة البشر السياسية والاجتماعية والعاطفية فى هذه القرون جميعاً بهذه الظروف ، فهى التى كانت تعين المسافات التى يمكن أن ترسل إليها السلع ، وطاقة الحكم فى إنفاذ أوامره و إرسال جنده ، والقيود المقامة فى سبيل استقاء الأخبار ، بل قل إنها تحدد جميع مرافق الحيـاة . ومن النادر أن نجد جماعة حقيقة بهذا الاسم يعدو شعورها مجال صلاتها العادية . وطبيعى أن تستقر الحياة الإنسانية فى بقاع من الأرض يتحكم فيها تداخل هذه القيود والعوائق الطبيعية من جبال وبحار ، فأمم مثل فرنسا وانجلترا ومصر واليابان ظهرت ثم ظهرت مرة أخرى فى التاريخ كأشياء طبيعية واجبة الوجود . وأما المحاولات السياسية الكبيرة كالأمبراطورية الرومانية مثلا ، فما استطاعت أن تحتفظ بوحدتها ومثل الامبراطورية الرومانية فى تماسكها كمثل قطعة مبللة من النشاف ، تنفصم عراها على الدوام . وقد كانت الأمبراطوريات القديمة التى تجاوزت رقعتها حدود أوطانها الأصلية ، عبارة عن دول مزعزعة الأركان كل مهمتها أن تأخذ الجزية من غيرها . فما عَبَّرت عنه بشبكة الدول الصغيرة والكبيرة كان فى الظروف القديمة التى ساد فيها الجواد والقدم والمركب الشراعى ضرورة

تحتمها الطبيعة كحجوم الشجر والحيوان . وتغير هذا كله فى مدى قرن واحد من الزمان ولا يزال علينا أن نواجه إلام يقصد بنا هذا الانقلاب ؛ جاء أولاً البخار ، فالقاطرة ، والباخرة ، ثم أقبلت فى سرعة متزايدة آلة الاحتراق الداخلى والجذب الكهربائى والسيارة والطائرة ، ونقل القوى عن محطة مركزية ، والمسرة والمذياع . وأنا أستسمحك فى سرد هذه القصة الشائعة فأنا أفعل ذلك لكى أؤكد لك القول بأن جميع البقاع التى كانت جد ملائمة وصالحة لوسائل العيش القديم التى كان يجدها الناس أصبحت من الضيق والعسر ، بحيث لاتلائم حاجيات العصر الحديث . وهذا ينطبق على كل وحدة إدارية أيا كان نوعها ، من مجالس بلدية ومركزية ، وعلى مدى اتساع المعاملات ، إلى دول ذوات سيادة . لقد كانت هذه الوحدات ، بل ولا تزال فى معظمها صغيرة جداً بالنسبة لمقتضيات الحياة الجديدة . كما أنها جد متقاربة . وهذا الترابط والتضاغط فى الكيان الاجتماعى بأسره شىء ثقيل ، وهو إذا امتد إلى رقعة الدول ذوات السيادة أصبح من الخطورة بمكان عظيم ، وأضحى أمراً لايحتمل ولا يمكن أن تستمر الحياة الإنسانية وحواضر معظم الأمم المتحضرة فى العالم على مسافة ساعة واحدة للمقبلات من حدودها التى وراءها الهجات وتتخذ الاستعدادات السرية بلا رقابة ما . ومع هذا فنحن لا نزال على تسامحنا وولائنا لنظم تحاول المحافظة على هذه الحالة . وتعالجها كألا سبيل إلى غيرها .

وحتى هذه الحرب الحاضرة فى سبيل هتلر وستالين ومستر تشمبراين أو ضدهم لن تحل المشكلة الأساسية ، ألا وهى إلغاء المسافة . والواقع أنها قد تهدم كل شىء ولكنها لن تحل أى شىء . وإذا استطاع المرء أن يمحو كل أسباب النضال الحالى فلا يزال يواجهنا اللغز الأساسى وهو زوال الحدود التى تفصل بين معظم الدول ذوات السيادة واندماجها فى حلف أعم . علينا أن نفعل ذلك إذا كنا ننشد حياة محتملة فى صورة من صورها . فتوقيع المعاهدات وتبادل الضمانات لا يكفى ، وحسبنا فى الواقع ما تعلمناه فى النصف الأخير من القرن الماضى لكى ندرك صحة ما ذهبنا إليه من أجل إلغاء المسافة وحدها ، أن نجمع أزمة الأمور الإنسانية تحت رقابه جامعة مانعة للحروب ولكن إلغاء المسافة هذا ليس إلا مظهراً قوياً من مظاهر التغيير فى الحياة الإنسانية ، ويندمج فيه ذلك التغيير العام فى مقياس الجهود الإنسانية ، فقد كانت المائة سنة الأخيرة عصر اختراع واكتشاف ، فاقت كل ما بذل فى الثلاثة آلاف سنة التى سبقتها . وقد حاولت فى كتاب أصدرته منذ ثمانيــة أعوام عنوانه « عمل البشر وثروتهم وسعادتهم » أن ألخص سيطرة الإنسان المضطردة على القوى والمواد . فإن مدينة حديثة مثل برمنجهام تنفق من القوى فى اليوم الواحد أكثر مما كانت تحتاج إليه انجلترا فى عهد اليصابات لمدة عام كامل ؛ وفى الدبابة الواحدة من القوى المخربة أكثر مما كان يحتاج اليه جيش وليم الأول لغزو انجلترا . والانسان الآن قادر على أن ينتج أو يدمر ما لا سبيل إلى

مقارنته بما كان يستطيعه قبل هذا السيل الجارف من المخترعات . وكانت النتيجة أن اضطرب الكيان الاجتماعى لأجداد أجدادنا . لم ينج منه ضرب من ضروب العمل أو التجارة . فقد طعنت السنن والنظم الاجتماعية القديمة بما نسميه « طعنة نجلاء » وما من مهنة كصيد السمك والفلاحة والنسيج والصياغة والتعدين إلا وتأثرت بالتنقيح المستمر فى طرائقها لكى تلائم مقتضيات الأساليب الحديثة وتخبطت أوضاعنا فى التجارة تبعاً لهذه الانقلابات واختفت الحرف الدقيقة بانحلال الكيان الاجتماعى .

وقد أخذت النظم الجديدة الخاصة بالقوى تدمر الغابات بسرعة فائقة وتحول المسافات الكبيرة من الأرض الخضراء إلى صحارى ، وتستنفد المواد المعدنيـة ، وتبيد الحيتان والفقم وكثيراً غيرها من أنواع الحيوان النادرة الجميلة ، وتقوض الجانب المعنوى لكل كيان اجتماعى وتجتاح المعمورة . وساعدت الفرص الجديدة على التوسع الهائل فى قوة التدمير بفضل أسس التملك الفردى للأراضى وللموارد الطبيعية بوجه عام ، وكذلك بفضل العمل الخاص فى سبيل الربح الذى أدى إلى قيام حياة اجتماعية على شىء من التسامح و « التحضر » لجميع الناس اللهم إلا المعوزين فى أوربا وأمريكا والشرق لعدة قرون . فإن الباحث عن الربح الدءوب الصبور الناشط فى القديم قد علا الآن شأنه وزُوِّدَ بما أعده له تغير المقياس من مخالب وأسنان هائلة ، فمزق النظام الاقتصادى القديم شر ممزق . ونحن إذا غضضنا النظر عن الحرب فإننا نجد أن أرضنا آخذة بأسباب الدمار والانحلال . ومع هذا

فإن الأمور تسير فى مجراها من غير ضابط عام ، وهى أكثر تخريباً وأشد هولاً حتى من مفازع الحرب الحديثة وفظائعها .

ويجب أن نوضح الآن أن الحاجة الملحة إلى ضابط عالمى جماعى يمنع الحرب والحاجة الأقل ظهوراً من سابقتها إلى ضابط جماعى يدبر حياة البشر الاقتصادية والبيولوجية هما مظهران لشىء واحد ، وأهم هذين الأمرين هو الحرب أو لا حرب فأخطرهما هذا الاضطراب المطرد فى الحياة العادية . فقد نشأ الإثنان على السواء من إلغاء المسافة وتغيير المقياس . يؤثر أحدهما فى الآخر و يفعل فيه ، و إذا نحن لم ندخل فى حسابنا سيرهما جنباً إلى جنب وتفاعلهما ، فإن كل مشروع يرمى إلى حلف عالمى أو ما يشبهه مقضى عليه بالفشل لا محالة .

وعلى هذه الصخرة تحطمت عصبة الأمم ؛ كانت هيئة فقهية وكانت هيئة سياسية . فقد اقترح نظامها أستاذ سابق من أساتذة التاريخ على النمط القديم يعاونه نفر من رجال السياسة . وقد أغفلت هذا الإنحلال الخطير فى الحياة الإنسانية الذى أحدثته الثورات الآلية ، والتوسع فى المعاملة . والأساليب المالية المستحدثة وقتذاك ، ولم تكن الحرب الكبرى نفسها أكثر من نتيجة ثانوية لها . وقد أنشئت هذه العصبة وكأن شيئاً من ذلك لا وجود له . وما عاصفة الحرب الحالية التى تثور بنا الآن والتى ترجع إلى الإنحلال المستمر فى نظم الحكم بين مجموعة متشابكة من الدول ، سوى مظهر واحد من مظاهر الحاجة العامة إلى توحيد الجهود الإنسانية توحيداً

يقوم على العقل ؛ وليست الدولة المستقلة المهددة أبداً بالحرب ، والمسلحة بالموارد الآلية الحديثة المفزعة ، إلا أهول مظهر لنفس هذه الحاجة إلى الضابط العام الذى يجعل المؤسسات الخاصة والشركات المتضخمة المستقلة — هدامة للكيان الاجتماعى . وإذا لم يكن فى العالم مدفع أو أو بارجة أو دبابة أو رداء عسكرى لظللنا تحت رحمة جبابرة « التجارة » « وطغاة المال » ولظللنا نباع ونجرد من أموالنا . ويجب علينا أن ندرك جيداً أن الحلف السياسى الذى لا يصحبه شيوع اقتصادى مقضى عليه بالفشل ولا ينطوى عمل واضع الهدنة الذى يرغب حقاً فى استقرار السلام فى عالم جديد ، على مجرد ثورة سياسية بل ينطوى أيضاً على ثورة اجتماعية عميقة بل لعلها أعمق من الثورة التى حاولها الشيوعيون فى روسيا . ولم تفشل الثورة الروسية بسبب تطرفها بل فشلت بسبب العنف وعدم الأناة والتعصب الذى صحبها ، وبسبب افتقار رجالها إلى بعد النظر والكفاية الذهنية . والثورة العالميـــة التى تنشد شيوعية عامة . وهى الهدف الوحيد أمام البشرية مقابل الفوضى والانحطاط يجب أن تكون أكثر طموحاً من الثورة الروسية ؛ يجب أن تكون أحزم من ذلك وأقوى . ويحتاج تحقيقها إلى طعنة أقوى وأثبت . ولن نجنى فائدة ما من إغماض أعيننا عن أهمية وضع السلام العالمى وعظمته . وهما العاملان الأساسيان فيما نحن بصدده .

شباب طموح

وعلينا الآن أن نختبر عوامل الهدم هذه عن قرب . . . وهى العوامل التى تفت بشكل ظاهر فى عضد النظام السياسى والاجتماعى الذى نشأ فيه معظمنا وتقلبه رأساً على عقب ففى أى المواضع الخاصة من حياتنا السياسية والاجتماعية تتلمس هذه العومل الهدامة ومواطن الضعف ؟

وأهم هذه المواطن التى بدأت تتضح للناس أكثر فأكثر هى شيوع أنصاف المتعلمين . وكان من أخص نتائج الاندفاع فى استغلال القوة والاختراع فى عهدنا إهمال جانب عظيم من الجهد البشرى فى صورة الشباب المتعطل وهو عامل مهم من عوامل القلق السياسى العام .

ونحن نعترف بأن الإنسانية لا تشكو كما يفعل معظم أنواع الحيوان من الجوع أو الافتقار المادى بأية صورة من صوره . إنما يهددها الزيادة لا النقصان . فالتخمة سبب شقائها . إنها لا تحتضر من الإجهاد الجثمانى ، ولكنها تمزق نفسها إربا .

وإذا قسنا الإنسانية بغير مقياس الرضى والطمأنينة القصوى ، وجدناها أغنى بكثير مما كانت عليه عام ١٩١٨ . فمقدار القوى والمواد التى تحت سلطانها المباشر ، أعظم بكثير . وإن ما نسميه بالقدرة على الإنتاج أكبر ، ولكن

لدينا من الأسباب ما يحملنا على القول بأن جانباً كبيراً من هذه القدرة المتزايدة على الإنتاج إنما هو استغلال أسرع وأشد لرأس مال لا يعوض . وهى حالة لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية . وتبلغ غايتها القصوى ثم تزول ... والموارد الطبيعية تستنفذ بدرجة كبيرة والإنتاج المتزايد يحول إلى ذخائر الحرب ، وهدفها الهدم ، أو إلى جهود عقيمة — ليست خيراً من التفريط . والإنسان « وارث العصور » مبذر سفيه ، فى حالة سل جارف يعيش على المنبهات .

ونحن إذا تأملنا إحصائيات السكان لرأينا الدليل القاطع على أننا قد بلغنا النهاية القصوى فى كل شىء (أنظر فى هذا الموضوع كتاب شفق الأبوة لايد شارلس Ihe Twilight of Parenthood : Euid Charles أو كتاب مقياس نمو السكان لـ (دكتشنرنسكى) R. R. Kueggushi Measurements of Populatim Growth وأن الانحلال السريع محقق لا فى غرب أوربا وحده بل فى العالم بأسره . وثمة سبب معقول يدعونا إلى الارتياب فيما زعمه البعض من أعداد الزيادة فى السكان الروس . (أنظر كتاب ستالين لمؤلفه سوفارين (Sauvarine) ومهما يكن من شىء فإن اضطراد التحسين فى وسائل الإنتاج يبعث على مضاعفة الأثر الناتج عن هذا التعطيل الجديد . والعالم فى القرن العشرين يختلف تمام الاختلاف عن العالم الذى كان بالحيوان أشبه فى القرن الثامن عشر فإنه عبارة عن بحر عجاج من شباب متبرم غير مطمئن وفتيات لم يعد همهن انجاب الأطفال

وفتيان لا يجدون متنفساً لحوافزهم الطبيعيـة ومطامحهم ، شباب متأهب للانتقاض إذا وجد الوسيلة إليه .

أما فى الماضى — عهد الصناعات الساذجة . فقد كان الذين لا يملكون يكدون ويكلفون فوق طاقتهم . وكان من اليسير إيجاد عمل للجميع فيشتغلون به عما سواه ولم تعد هناك حاجة إلى هذه الجموع الزاخرة وأصبح العمل ولا سوق له ... والآلات أحسن أداء وأقل مقاومة .

وقد أخذت هذه الجموع المخذولة تشعر تماماً بخذلانها وأخذ ما يلازمها من نقص مفتعل فى بعض أجزائه يتلاشى لأنهم اليوم يقرأون جميعاً . بل إنه فى حالة العمل العارض كان من الواجب أن يعرفوا ذلك . حتى أصبح جمهور القارئين الجديد الذى وجد على هذا النحو قد ابتعث أو أثاره إيحاء . وتبهرهم السينما والراديو بمشاهد البذخ والحياة التى لاحد لترفها . فلم يعودوا فلاحين علافين لا حول لهم كما كان حالهم منذ مائة سنة . فقد بلغوا من الثقافة المستوى الذى بلغته الطبقة الوسطى من غير شك عام ١٨٨٩ والحق إنهم طبقة وسطى مضيق عليها ، قلقة ، نافذة الصبر بل وخطرة جداً كما سنرى . وقد فقدوا بكل ما فى الطبقة الدنيا التى كانت تتألف فيما مضى من عوام أميين . ولم يعد فى هؤلاء السكان المحدثين المتكاثرين أى أنواع التواضع الاجتماعى ولم يعودوا يعتقدون فى تنزيه حكامهم . فهم يرونهم سافرين : ويعلمون عنهم ، وعن تبديدهم ورذائلهم ومواطن ضعفهم فى وضوح مبالغ فيه . ولا يرون سبباً يبعث على حيلولة هؤلاء الناس بينهم

وبين طيبات الحياة وقد فقدوا شعورهم بالنقص مما جعلهم يدركون معظم ما فيهم من تخلف جار دخيل .

قد تقول إن هذه الحالة مؤقتة لاتدوم، و إن النقص فى السكان سيحل الاشكال بالتخلص من هذا الفيض الذى لا حاجة إليه ولـكن شيئاً من هذا لن يكون . فكلما نقص السكان نقص الاستهلاك . وستظل المصانع على اضطرادها فى إنتاج كامل لسوق يأخذ فى الانكماش والضيق وسيكون استغلالها للأيدى العاملة أقل وأقل والدولة التى تتألف من خمسة ملايين من الأنفس بينهم نصف مليون متعطل فيها من القلق والاضطراب ضعف ما فى الدولة التى تضم أربعين مليونا من الأنفس بينهم مليون من المتعطلين وما دامت الأحوال على ماهى عليه الآن فان هذه الطبقة من الشباب الحائر ستشمل تبعاً لذلك الجماعة بأسرها . ولما يدرك العالم بجلاء إلى أى حد تتعدد متاعب عصرنا الحاضر لهذا المظهر الجديد من مظاهر المشكلة الاجتماعية ولـكننا إذا تحرينا الدقة فى فحص حوادث النصف الأخير من القرن الماضى على ضوء هذه الحقيقة فإننا سنقتنع شيئاً فشيئاً بأن العوامل الهدامة إنما تظهر خلال هذه الرغبات المكبوتة الـكثيرة المتزايدة .

فإن الشباب المتعطل المغامر المتحفز هم فى الحقيقة الجنود الذين يقوضون أركان الـكيان الاجتماعى القديم فى كل مكان فهم يلقون بقيادهم إلى حزب أمين أو زعيم ملهم ينظمهم لأغراض ثورية أو مناهضة للثورة . فهم يصبحون شيوعيين أو فاشيين أو نازيين أو من جنود الجمهورية الإرلندية

أو من أتباع كوكلكس Ku Klux Klausmen وهلم جرا وهذا ينطوى على امتزاج الجهد والقمع وعدم الرضا . وما تشترك فيه هذه الحركات جميعاً هو الاحتقار الشديد للنظم الاجتماعية التى أوجدتهم ثم لم تحفل بهم ، فينشأ عن ذلك نظام شبه عسكرى وتصميم على أن يقبضوا بأنفسهم على أزمة الأمور فى شخص زعمائهم . والحكومة القوية الرشيدة هى التى تتوقع هذه الجهود الهدامة وتتنكب عنها بأن تدبر مختلف وسائل العمل الجديد وأن تهيء للجميع أسباب الحياة الناجحة المطمئنة . فالشباب هم الحياة . وقيام الزعيم الموفق انما يقضى على هذه المشكلات إلى حين . فهو يصل إلى السلطان باسم الحركة التى قاد لواءها . وماذا بعد ؟ ... وما دام هذا الزعيم قد بلغ غايته من السلطان . فانه يجد نفسه مرغماً على أن يبقى الأمور على حالها . . . ويختلق المبررات لزعامته ما أضاع على المتبرمين الأعمال والأقوال .

أما الزعيم البصير فيستطيع بواسطة المعاونة الفنية الملائمة — أن يوجه الكثير من الجهد الإنسانى الذى يتحكم فيه إلى غايات إنشائية . مثال ذلك أنه يستطيع أن يشيد من جديد المدن القذرة غير الصالحة فى عصرنا هذا ويحول الريف الزرى المهمل إلى ملاعب ومتنزهات ويذكى الخيال ويحرره ويشحذه حتى تغدو الأفكار التى تدفع إلى التقدم الإنشائى سنة من سنن العقل . ولكنه إذا أراد ذلك فإنه يواجه اولئك الذين يتمسكون بحقوق الامتلاك بالشفعة ووضع اليد فى النظام القديم وسيساوم هؤلاء

السراة إلى النهاية ويعطلون استيلاءه على الأرض والموارد المادية واستغلالها وسيجد نفسه مقيداً بهذه الحقيقة وهى أنه فى تنظيمه لشبانه عليه أن يحول عقولهم وجهودهم من العمل الإنشائى إلى الجهاد المسلح العنيف . ومن اليسير أن يصبح الشاب المتعطل فاشياً أو قاطع طريق ولكن من العسير أن نعيده إلى ضرب من ضروب العمل الاجتماعى المهذب . أضف إلى ذلك أن الزعماء يدينون بزعامتهم فى الغالب إلى ما فى هذا الشاب المتعطل من نزوع إلى التآمر والمغامرة . بل إن هذا الزعيم نفسه غير أهل للعمل الإنشائى ولذلك يجد نفسه محارباً على رأس عصبة من المحاربين .

زد على ذلك أن الزعيم إذا لم تكن أمته فى مجال الروسيا أو الولايات المتحدة فإن كل محاولة يبذلها لتحقيق وعوده بحياة راغدة ستصدم حتماً بالنفوذ المتبادل بين الدول القوية الذى يرجع إلى إلغاء المسافات وتغير المقياس ، وهو ما سبق أن عرضناه له . فليس له مجال حر يعمل فيه وينشأ عن هذه الصعاب المتداخلة أن يتحول الزعيم وعصبته بلا هوادة إلى السماح بقيام هذا الفيض من حروب السلب والنهب وتحريرها من كل قيد .

فنحن نجد الحكومات فى كل مكان وإن اختلفت الظروف المحلية تشغل نفسها أولا وقبل كل شىء بهذه المعضلة العظمى وهى ما تصنع بهؤلاء الشباب البالغين الذين لا عمل لهم فى الظروف الحاضرة ويجب أن ندرك هذه الحقيقة وألا نغفل عنها أبداً . فهى فى كل آن أخطر فكرة عن الموقف

العالمى وأدعاها إلى التخليط أن تعامل بعض الأمم كأنها تختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر العالم .

ومشكلة إيجاد العمل الجديد للمتعطلين البالغين هى المشكلة الأساسية التى تواجهها كل دولة . فهى السمة الشائعة التى تظهر فى جميع الأحداث السياسية . وكيف يتأتى لنا أن نستنفذ هذه الزيادة فى الجهد الإنسانى أو نطفىء جذوتها ؟ فالشباب هو الخلاصة الحية لجنسنا البشرى . والجيل الذى دون السادسة عشرة أو السابعة عشرة لما يبدأ فى أثارة المتاعب ، والذين فوق الأربعين تضمحل حيويتهم فيقنعون بما قسم لهم .

ويجد أمثال فرانكلين روزفلت وستالين أنفسهم مشرفون على إدارة أمم متسعة الأرجاء لما تأخذ حظها فى الرقى ولما تستقم من تطورها فتنصرف معظم جهودهم إلى الشئون الداخلية ينظمونها أو يعيدون تنظيمها . وهم بذلك لا يوسعون رقعة بلادهم ولا يوسعون الحروب . والتوسع الروسى الأخير إنما كان من وسائل الاحتياط فى الدفاع وعلى الروسيا وأمريكا معاً أن يهيئا أسباب الحياة لهذه الطبقة الاجتماعية المزعجة كما هو الحال فى أوربا مشروع النوديل The new Deal ما هو إلا محاولة واضحة لتحقيق اشتراكية عملية وتجنب التدهور الاجتماعى فى أمريكا وفيه مشابهة عجيبة للأنظمة والخطط التى تعمل بها الشيوعية الروسية ويفزع الأمريكيون من كلمة «الاشتراكية» ولكن ما عسانا أن نسميها ؟ .. أما الأرستقراطية البريطانية المنحلة البطيئة بثروتها المكدسة من عصر المغانم ، فقد تخلصت ، من

الثورة الاجتماعية إلى حين بتخدير الألم تخديراً بطيئاً يفت فى عضد الجماعة ولما تبذل أية محاولة جديدة فى استخدام تهيئة العلم والعمل لهؤلاء المتعطلين وكان قصاراها أن تقذفهم بالآلام بل إنها تحاول أن تشترى زعيم حزب العمال بمرتب قدره ألفان من الجنيهات كل سنة . ومهما يكن من رأينا فى النظام النازى أو الفاشى أو فى حماقات زعمائهما ، فيجب علينا أن نسلم أنهم يحاولون — وإن كانت محاولة عقيمة — أن يشيدوا حياة جديدة على أساس جماعى . وهى محاولات غايتها الملاءمة والبناء ومن ثم فهى أسبق من الطبقة البريطانية الحاكمة . وقد أثبتت الأمبراطورية أنها أقل الحكومات من الناحية الإنشائية فلم يصدر عنها مشروع كمشروع New Deal أو كمشروع الخمس سنوات ، وستحاول جاهدة أن تدرأ ما ينخر فى عظامها وتستمر فى سيرها فى النهج القديم ، والظاهر أنها ستظل كذلك حتى ينضب معينها .

فمبدأ « السلام فى عصرنا » هذا المبدأ الفج الذى عنى المستر تشمبرلين به نفسه ، هو العقيدة التى يهتدى بها الساسة القدماء . فهى الرغبة الطبيعية التى نستشعرها جميعاً بعد الستين وهى أن نجلس جلسة مريحة فى مكان ما . فهم يريدون بأى ثمن هدوءاً لا تقدم فيه ، بل إنهم مستعدون لأن يدفعوا ثمن هذا الهدوء حرباً واقية . ولم تظهر قط هذه الجماعة العجيبة من الحكام أى فكرة ما عن مستقبل مشترك ينتظر امبراطوريتهم المتشعبة . وقد جاء وقت كادت تصبح فيه هذه الأمبراطورية موثق الكيان

العالمى ، ولكنها أظهرت الآن ألا مستقبل غير التفكك والانحلال وجلى أن حكامها كانوا يتوقعون لها أن تظل أبداً على ما كانت عليه . وأخذت أجزاؤها التى تتألف منها يتساقط الواحد بعد الآخر شيئاً فشيئاً وتصبح دولاً مستقلة وذلك بعد نضال عقيم بوجه عام . فجنوب إيرلندا يقف على الحياد فى هذه الحرب كما ترددت أفريقيا الجنوبية فى خوض غمارها .

والآن وهذا هو السبب الذى دعانا إلى تأليف هذا الكتاب فقد دفع هؤلاء الحكام ، بسلسلة من الأخطاء الشنيعة ، بما تبقى من أمبراطوريتهم ، فى حرب عظمى للقضاء على هتلر . وهم لايبدون قط لخصومهم أو للعالم أجمع رأياً ما عما سيكون بعد هتلر . والواضح أنهم يأملون أن يشلوا حركة ألمانيا بطريقة لما تتحدد بعد ثم يعودون إلى لعب الجولف أو صيد السمك أو يقفون إلى جانب المدفأة بعد العشاء وليس من شك فى أن هذا هو أعجب شىء فى التاريخ ، وهو احتمال الموت والدمار فى حين لا نجد عند حكومتنا المحاربة فكرة ما عما سيتبع بعد تمام القضاء على هتلر ويظهر أنهم مجردون من كل شعور بالمستقبل ، كما أن رؤوسهم قد خلت من كل شىء يتصل بنتائج حروبهم .

ومن ثم كانت الأمبراطورية البريطانيـــة تأخذ طريقها إلى الإفلاس التام — تشترى راحتها من عناء التفكير فى مشكلات المستقبل المحيرة ، بما تجمع عندها من ثروة الماضى وسلطانه . وهى تتحول بسرعة إلى أكثر

النظم السياسية رجعية فى العالم ولكن بعد زمن يقصر أو يطول سيذهب ما عندها من مال تبذله ، ولن يعود لها حلفاء تجرهم ، أو مستعمرات تسلمها إلى زعمائها الوطنيين ، ويحتمل كذلك أن يصبح انحلالها تاماً ان استثنينا أذكياء الإنجليز يعقدون أواصر الصلة بأمريكا وسائر الأذكياء فى العالم ويواجهون المشكلة العالمية ألا وهى كيف السبيل بين الملاءمة بين أنفسنا وبين تلك العوامل الهدامة التى تقوض أركان المجتمع البشرى بنظامه الراهن .

ونحن نجد فى الأمم المضطهدة ذات المجال الداخلى الضيق والتى تعوزها الموارد الطبيعية الكبيرة التى للجماعات الروسية والأطلنطية ، أن الموجه الداخلية تعمل فى سبيل حرب الاعتداء مباشرة ، ولكن القوة الكامنة وراء عدوانهم هى بعينها المشكلة العالمية ، مشكلة هذا العدد الزائد من الشباب .

ونحن إذا نظرنا إلى الحرب الحالية بهذه النظرة الواسعة لعادت إلى مستواها الحقيقى فتبدوا مجرد نزاع أحمق على أهداف ثانوية تعطل تنظيم العالم تنظيماً شاملاً وتمنعه وقتل مئات الأنفس أو آلافها لا يقدم ولا يؤخر . فإن معتوها بيده مسدس يستطيع أن يقتل أسرة بأكملها ولكنه يظل مع هذا معتوهاً .

وانقضى بين ١٩١٩ و ١٩٣٩ ربع قرن من الحماقة والصغار والتحايل والغل ولن يستطيع المؤرخ المجد المثابر إلا أن يحاول توزيع اللوم على أولئك

الذين ساهموا فى هذه المأساة . ولـكن عمله هذا لن يقدم ولن يؤخر . فإن معضلة شاقة محيرة قد واجهتنا جميعاً . وفقدنا جميعاً رؤسنا أمامها وخرجنا عن وقارنا وتشبثنا بالحلول الرخيصـــة واقتتلنا بلا روية فأخطأنا وما اهتدينا .... وأهملنا ما كان ينبغى أن نعمله وعملنا ما كان ينبغى أن نهمله ، ولم تسلم حياتنا .

وأنا لا أجد سبيلا إلى حل مشكلة السلام العالمى إلا إذا بدأنا بأن نعترف أولاً وقبل كل شىء بشيوع الخطأ فى التفكير والخطأ فى العمل وعندئذ نستطيع أن نتدبر المسألة ونحن نتوقع حلها .

ولنسلم الآن بأننا معشر الأذكياء ، ألمانيين كنا أو فرنسيين أو انكليز أو أمريكان أو طليان أو صينيين أو غيرهم قد صممنا — فى أعقاب الحرب وبالرغم منها — على أن نمحوا من عقولنا جميع أسباب النزاع ونبحث فى بساطة ووضوح موقف الإنسانية الحالى وما عسانا فاعليه لهذا العالم ؟ فلنسترجع الاعتبارات التى دخلت فى المسألة .

حرب الطبقات

ونرى لزاماً علينا هنا أن نفرق تفرقة كثيراً ما يهملها الباحثون .

فالجماعية هي وضع أزمة الشئون الإنسانية فى يد حكومة عامة مسئولة أمام الجماعة كلها . وهى القضاء على الأباحية فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية كما هو الحال فى الشئون الدولية . وهى الإلغاء الصريح للبحث عن الربح وكل ما من شأنه أن يجعل بعض الناس عيالا على غيرهم وهى التحقيق العملى للإخوة الإنسانية بواسطة حكومة عامة . وهى تعنى هذا كله ، ولا شيء غيره .

أما ماهية هذه الحكومة ووسائل الحصول عليها والاحتفاظ بها فلانزال قيد البحث .

والاشتراكية فى صورها الأولى محاولات لرسم النظم الجماعية وتطبيقها ولما جاءت الماركسية اختلطت الأنظار الجماعية الكبيرة بأخرى أصغر فى صراع الناس الدائم فى كل هيئة اجتماعية غير فى منظمة سبيل الاستغلال . واستمرت الأمور على هذا النمو طوال العصور . وحصل الأغنياء ، القادرون الأذكياء ، الأكفاء ، على كل شيء ، وسخروا وظلموا واستعبدوا وابتاعوا وأفسدوا من هم أقل ذكاءاً ، وكسباً ، ومقدرة . وظل

الذين يملكون على استغلال الذين لا يملكون أكبر استغلال ، فاستنكر هؤلاء المساوىء التى أدت إلى حرمانهم .

هذا هو الحال وكذلك كان فى كل العالم غير الجماعى. وقد علت صيحة المعوزين على مر العصور من عهد الفراعنة وأغنياء بنى إسرائيل متوعدة أولئك الذين يتحيفون على الفقراء . وقد مرت عهود كان فيها الذين لا يملكون من قلة العلم والحيلة بين السراة من أقرانهم بحيث عجزوا عن القيام بأى فتنة اجتماعية ولكن قلما حدثت وقائع مثل تجمهر الناس فى الضياع والمصانع واجتماعهم فى الموانىء والثغور . وتسرع الجند وإنتشار الجماعات وما إليها ألفت بين جماعات كبيرة من الناس على ألم واحد .

فتجمعت همومهم الفردية وأصبحت هما واحداً مشتركا . وكشف النقاب عن ضروب البؤس الكامنة فى الجماعة الإنسانية . وألفى الذين يملكون أنفسهم وقد انقضت عليهم ثورة حاقدة غضوب .

ولا يغيب عن بالنا أن الثورات التى قام بها الذين لا يملكون طوال العصور كانت جد هدامة فى بعض الأحيان ، بيد أنهم فشلوا أبداً فى أن يحدثوا تغييراً جوهرياً فى هذه القصة القديمة ، والقديمة جداً لتكون لهم اليد الطولى أو لا تكون . وأفزع الذين لا يملكون الذين يملكون أحياناً وأرغموهم على موادعتهم ، ثم أحرقت الخزائن أو القصور . وحزت المقصلة رقاب الأشراف ، وعلقت رءوس للعظة والاعتبار وهبت مثل هذه العواصف

ومرت ، وبمرورها يعود النظام القديم لأسباب عملية تروح أقوام وتأتى أقوام وعدم المساواة على حاله .

ومما تجدر ملاحظته أن الحياة الإنسانية فى تخبطها طوال القرون التى سادها الجواد والقدم لم تشهد ثورة من هذه الثورات المستمرة المتكررة بين الفائزين والخاسرين ولم تحدث ولو مرة واحدة إصلاحاً ثابتاً فى مصير الإنسان أو غيرت معالم المجتمع الإنسانى تغييراً عظيما .

ولم يكشف الذين لا يملكون قط عن ذكاء أو قدرة ولم يكشف الذين يملكون قط عن ضمير يحدثون به تبديلا ثابتاً فى قوانين المباراة — فما كانت ثورات الأرقاء الفلاحين الرعاع الانوبات من الغضب والحمى الاجتماعية قد مرت . وبقيت حقيقة واقعة هى أن التاريخ لن يكشف من سبب ولنفرض أن الذين لا يملكون ، فى مجموعهم ، ذخيرة من الكفاية فى الإدارة والتوجيه وإخلاصاً بريئاً من الغرض يفوق ما للطبقات الأكثر توفيقاً . وليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأنهم خير من أولئك . خلقاً وعقلا . .

ولعل كثيراً من القادرين الأكفاء يفوتهم التعليم ويخونهم الحظ وقد لا يكون النقص وراثياً فيهم ومع هذا فقد عطلوا وأفقدوا وحيل بينهم وبين النهوض . لقد أفسدوا .

وقد يخفق الكثير من الموهوبين من أن « يصلحوا شأنهم » فى عالم متدافع متنافس ، وهكذا يترددون فى الفقر وفى طرائق معيشة الطغام

العتيقة الفاشلة ، ولكن هؤلاء من الشواذ أيضاً وصورة الفرد من الرعاع المستقيم العقل المستعد دائماً إلى العمل ما هى إلا ضرب من الأحلام. وتحقيق الفكرة الجماعية من المشروعات الاشتراكية الأصلية ، فقد وضع المفكرون الألميون هذا الكفاح الطويل بين الذين يملكون والذين لا يملكون فى مكانه الطبيعى باعتباره جزءاً و إن يكن أشأم الأجزاء فهو جزء على كل حال ، من استنفاذ الموارد الإنسانية الهائل الذى ينطوى عليه إستغلالهم المضطرب . وقد أخذوا يبينون على ضوء الحوادث الجارية أن الحاجة إلى الوقوف فى وجه هذا الاستنفاذ للموارد بواسطة جماعية عالمية شاملة قد أصبحت على الأيام أمراً ممكناً وملحاً .

ولم تخدعهم الأوهام عن التعليم والتحرير الضروريين لتحقيق هذه الغاية . وكانوا أقل تأثراً بالبواعث الخلقية وعواطف الأشفاق وما إليها من بواعث . تافهة و إن أثارت الإعجاب ، منهم بالاستنكار الفعلى الشديد للعيش فى نظام مدمر أحمق، فكان منهم ثوريون لا لأن أسلوب العيش الحاضر شاق عاثر بل لأنه من أوله إلى آخره أسلوب محنق غشوم .

والانحراف بالاشتراكية إلى الجماعية ونشدانهما نظاماً صالحاً موجهاً للشئون العالمية ظهر به المبدأ الماركسى الأخرق بعقيدته فى حرب الطبقات الذى عمل الكثير فى استنزاف الجهد الإنسانى .

ورأى ماركس العالم من غرفة مكتبه وخلال الضباب الذى تثيره مطامعه الواسعة . وقد انساق مع أنظار عصره وساهم فى اندفاع الاشتراكية

وقتذاك نحو الجماعية . و بينما كان معاصروه الأحصف منه عقلا يدرسون الوسائل والغايات ، قفز من مجال الدراسة . الناقصة للحركة النقابية فى بريطانيا العظمى إلى أشنع ضروب التقسيم فى التطور الاجتماعى واخترع نظريتين ، عارض أحداهما بالأخرى . أحداهما النظام الرأسمالى ، والثانية العامل .

ولم يوجد على الأرض قط ، شىء يمكن أن يسمى بحق، النظام الرأسمالى . والهدف الذى كان الاشتراكيون يتحسسون طريقهم إليه هو الكشف عن نظام عالمى و إقامته .

وكان الذين يملكون فى عصرنا ، ولا يزالون ، أخلاطاً عجيبة من الناس ورثوا أو حصلوا على النفوذ والسلطان بطرائق ووسائل جد متباينة . ولم يكن لديهم بل وليس لديهم الآن شىء من التماسك الاجتماعى ، شىء يشبه حتى الأرستقراطية الأقطاعية أو أشراف الهنود بيد أن ماركس نظر إلى نفسه الباطنة أكثر مما نظر إلى الحقائق الواقعة فبسط عن يمينه هذا النظام ، الوحشى ثم بسط ما يقابله وكان لا يزال ينظر فى ذلك الخلاء فكشف عن شماله الرعاع يجردون من أملاكهم ويصبحون شاعرين بهوان طبقتهم الدنيا وكانوا فى شدة تباينهم كالذين على رأس السلم ، وهذا التباين موجود فى الواقع ولكنه غير موجود فى نظر الشيوعيين . وسرعان ما تماسكوا هناك .

و بينما أخذ آخرون يفكرون فى المعضلة الهائلة . إذا بماركس يعثر على علاجه الصبيانى البسيط . هو كل ما يجب عليك أن تفعله هو أن تقول

للعمال إن هذا النظام الرأسمالى جائر ، الذى وضعه السراه يسلبهم ويستعبدهم وأنهم إنما يفتقرون إلى توحيد صفوفهم ، فلن يفقدوا شيئاً سوى أغلالهم ويجب القضاء على هذا النظام الرأسمالى الجائر بالانتقام من "الرأسماليين عامة "والبرجوازية" خاصة ، فيحل عهد تكون الغلبة فيه للعمال وهو العهد الذى أوضحه بعد ذلك بعبارة جد مبهمة بأنه : "دكتاتورية الرعاع" وليس الرعاع فى حاجة إلى أن يتعلموا شيئاً أو أن يفكروا فى شىء إنهم مصيبون خيرون بطبعهم ؛ عليهم فقط أن يتعهدوا بالقضاء عليها . فإن ألوان الحسد والبغضاء والحقد التى لا حد لها فى الذين لا يملكون . تتحول إلى قوة خالقه جبارة ؛ وكل الفضائل فيهم ، أما الشرور ففى الذين تفوقوا عليهم . وثمة شىء واحد طيب فى مذهب حرب الطبقات هذا الجديد ، هو أنه يقوى آصرة الأخوة بين العمال — وهم فى أشد الحاجة إليها — وإن قابل ذلك تدعيم بعض الطبقات . وهكذا سارت الدعاية العظيمة لحرب الطبقات بالتزييف الخطير للحقائق الواضحة . ولم تنشأ الجماعية كما تظهر بشكلها الأخاذ عندما يرفع عن كاهل الرعاع كابوس الرأسمالية وسائر هؤلاء السراة المزعجين .

ولم يكن ماركس بارعاً فى شئون المال — وكان يضيق ذرعاً بقوائم التجار . أضف إلى ذلك أنه كان يعزز مزاعم الأرستقراطية الواهية ، ونتج عن هـذا أنه تخيل حياة العصور الوسطى المحببة بلون آخر وأنه ركز عقله ضد « البرجوازية » ، الذين حملهم مسئولية كل ما أشرنا

إليه من هذه العوامل الهدامة فى الجماعة الإنسانية . وقد أصبحت شخصيات مثل اللورد باكون ، ومركيز وركستر ، وشارل الثانى ، والجمعية الملكية ، بل ورجال أمثال كافندش وجول وواث مثلا من «البرچوازية» فى مخيلته الثائرة . وكتب فى نشرته الشيوعية ، « إن البرچوازية خلقت قوة إنتاج أشد وأقوى مما كان فى سائر الأجيال السابقة لها . وما الذى حدا الأجيال السابقة أن تقول فى أقدم إشاراتها إن قوة الإنتاج كانت مستكينة فى أرحام العمل المصاحب لها »

« أرحام العمل المصاحب لها » (يا لها من عبارة !) ورؤى إن السبب فى هذا هو الثورة الصناعية التى نتجت عن الثورة الميكانيكية . وهل ترى أن الحقائق تشوه أكثر من هذا ؟

وأردف ماركس يقول « . . إن النظام البرچوازى لم يعد قادراً على الملاءمة بينه وبين وفرة الثروة التى تخلقها . فكيف تتغلب البرچوازية على هذه الأزمات ؟ إنها تفعل ذلك — من ناحية — بالإبادة الإجبارية لقدر من قوى الإنتاج ، ومن ناحية أخرى ، بفتح أسواق جديدة والاستزادة من استغلال الأسواق القديمة .

ولكن ما جدوى هذا ؟ جدواه أن الطريق يمهد لاتساع رقعه الأزمات واستفحال أمرها ، وأن القدرة على التغلب على هذه الأزمات تقل .

« والأسلحة » (الأسلحة ! ونحن نعجب كيف يكثر هـذا السيد المتكاسل المتخاذل الطويل اللحية — من استعمال التعابير العسكرية)

« التى قضت بها البرچوازية على نظام الأقطاع تتحول الآن لتطعن البرچوازية نفسها »

« بيد أن البرچوازية لم تشحذ الأسلحة التى تحرزها فحسب، ولكنها أوجدت من يستعمل هذه الأسلحة . وهم العمال المستحدثون، الرعاع »

وهكذا يصورهم لنا ماركس فى نشرته وفى يدهم المطرقة والسندان، بارزة صدورهم، يعتزون بأنفسهم، لهم الأمر، وعليهم سمات الجلالة، ولكن اذهب بنفسك وشاهدهم فى الطريق العام . إذهب وشاهدهم فى الروسيا .

بل إن هذا التحليل الاجتماعى لو طبقناه على العالم فى عام ١٨٤٨ نجد أنه لم يكن بارعاً : إنه سورة رجل . . . ! أنه البرچوازى المكروه، رجل له نظرته الخاصة، لا يفقد أهواءه اللاشعورية، ولكنه ماكر بحيث يدرك ما فى الحقد ومركب النقص من قوة الدفع، ماكر بحيث يصطنع الحقد . . وفيه من المرارة ما يجعله حقوداً . وليقرأ أى فرد « النشرة الشيوعية » وليقدر من كان عنده أثرة من حقد أو كان عنده الحقد كله، إذا لم يكن ماكس بن حاخام يهودى . ولنضع لفظ « اليهود » موضع لفظ « البرچوازية » فتصبح هذه النشرة رسالة فى التعاليم النازية الخالصة فيما بين عامى ١٩٣٣ — ١٩٣٨

وإذا ماردت الماركسية إلى أصلها بهذه الطريقة اتضح زيفها . بيد أن أشيع مظاهر الضعف فى العقل البشرى وأعجبها هو عدم تحريه النقد للفروض

الأولية ، وأنه يقضى على كل بحث فى صحتها بانصنعة ، والمصطلحات والقواعد التقليدية . وتستند أغلب عقائدنا على أسس واهية ، وتحاط هذه الأسس فى الغالب الأعم بهالة من القداسة لحمايتها من التهجم عليها ، فتستحيل إلى عقائد بضرب من قدس الأقداس . ومن عدم اللياقة أن تقول « إنها محض ترهات » ويعصف الغضب والاستنكار بحماة العقائد كلها ، « إذا مس ما فى أسس عقائدهم من الضعف أو الوهن . وبخاصة إذا سخر المرء منها ضاحكا » فذلك هو عين العار :

وإن مجافاة النقد الأساسى هو من أعظم المخاطر التى تهدد الإدراك الإنسانى العام . وليست الماركسية شذوذاً فى النزعة العامة . فان النظام الرأسمالى يجب أن يكون نظاماً حقيقياً ، والبرجوازية مؤامرة منظمة ضد العمال . وإن كل نضال أو كفاح إنسانى ، فى أى مكان ، يجب أن يكون مظهراً من مظاهر حرب الطبقات . وإلا فلا سبيل إلى مجادلتهم ، فلن يستمعوا إليك . ولم أجد ثمة محاولة واحدة للإجابة عن الأسئلة السهلة التى ظللت أوجهها إليهم طوال ثلث قرن . فكل ما ليس فى لغتهم ينحدر عن عقولهم كالماء ينحدر عن ظهر البط . بل إن « لينين » نفسه — وهو أرصن الشيوعيين عقلا إلى الآن — لم ينج من هذا المزلق ، ولما تحدثت إليه فى موسكو عام ١٩٢٠ وجدته غير قادر على إدراك أن الصراع العنيف القائم فى إيرلندا حينذاك بين الوطنيين الكاثوليك والحامية البروتستانتية لم يكن ثورته المقدسة . التى يحمل لواءها الرعاع .

وفى العالم اليوم عدد كبير من الكتاب ، وبينهم بعض رجال العلم ، يجب عليهم أن يحسنوا التفكير . وهم يضعون فى خشوع ، فلسفة متحولة للعلم والمجتمع ، تقوم على الاسس البائدة الباطلة التى قال بها ماركس . ويصب نادى الكتاب الأيسر المجد ، كتاباً جديداً كل شهر ، على عقول أنصاره ، ليقوم أفكارهم ، ليحميهم من تشكك تواليف المجددين. وسوف يتبع ذلك بطبيعة الحال صدور فهرس حزبى للكتب المحرمة . وأخذ علماء مبرزون معتزون بعبقريتهم يحاضرون ويناقشون بل ويصدرون مجلدات عليها مسحة الجد فى تفوق الطبيعيات الماركسية ، والبحث الماركسى ، إلى العقل الانسانى بجهوده التى لا صبغة لها . . والمرء منا يحاول ألا يكون قاسياً فى الحكم عليهم ، ولكن من العسير علينا أن نعتقد أنهم لا يتعمدون تغفل أنفسهم ، وهل يشعرون أن الشيوعية الثورية أمامهم . وهل هم يعملون كل ما فى وسعهم لتدعيمها من الناحية العقلية وهم يرتقبون هذه الأيام الدموية الحمراء فى المستقبل القريب ؟

ولست أستطيع فى هذا المقام أن أتتبع بالتفصيل سيرة الماركسية فى نشأتها وانحلالها فى الروسيا ، فهى تؤيد فى كل دقيقة من دقائقها ما ارتأيته من أن فكرة حرب الطبقات ما هى إلا تخبط وقلب لاتجاه العالم نحو الجماعية العالمية ، وأنها عبارة عن مرض الاشتراكية الشعوبية المبدد ، وقد نحت فى سيرها العام نحو كل ثورة قام بها الذين لا يملكون منذ بدء التاريخ . وكانت الروسيا فى مغرب تاريخها من عدم الكفاية حتى تسربلت

فى الظلام ، وعمل رجالها غير الاكفاء من المهندسين والقائمين بالاعمال والواضعين للخطط وغيرهم ، أعقد نظام من نظم الحماية الذاتية ضد النقد . وكاد بعضهم لبعض وتآمر بعضهم على بعض . وأنت تستطيع أن تعرف خلاصة الأمر كله فى كتاب صفحاته قليلة عن ذهب السوفيت « وكانت الثورة كغيرها من ثورات الذين لا يملكون منذ فجر التاريخ ، استولت فيها عبادة الأبطال على الجماهير الهائجة . ولم يكن بد من ظهور زعيم . فقد تخلصوا من القيصر ، وما انقضت عشرون سنة حتى أخذوا يعبدون ستالين — وكان فى الأصل رجلا ثوريا على شىء من الأمانة ، طموحاً غير عبقرى — ساقته الحوادث إلى العمل لحماية نفسه باصطناع القسوة ، وانتفخت أوداجه بتملق حكمه المطلق الشبيه بالالهى . وتتم الدورة فلا نجد تغييراً ما كما هو الحال فى كل ثورة جموح أخرى . . فقد زال عدد كبير من الناس وحل محلهم عدد كبير آخر . وكأن الروسيا تعود أدراجها إلى النقطة التى بدأت منها أى إلى استبدادية وطنية ، جدارتها محل شك ، وغاياتها مبهمة غير محددة . وأنا أعتقد أن ستالين رجل أمين صادق النية ، وهو يؤمن بالجماعية فى بساطة ووضوح . وهو لا يزال يؤمن بأنه يقصد الخير للروسيا والشعوب التى تقع تحت سلطانها . وبلغ من اعتداده بنفسه أنه لا يصبر على نقد أو معارضة . وقد لا يكون خلفه مثله استقامة وعدم تحيز .

وحسبى ما كتبته فى توضيح السبب الذى يدعونا إلى فصل الجماعية

عن حرب الطبقات فصلا تاماً فى عقولنا . فلنكتف بما أضعناه من وقت فى النظر إلى مشهد الماركس وهو يضع العربة أمام الجواد . ويربط نفسه بمدة الخيل . ويجب أن نطرح من عقولنا هذه النظرة العامة إلى الموضوع . وأن نبدأ من جديد فى بحث موضوع (كيف نحقق الجماعية العالمية) باحتمالاتها الجديدة التى لا سوابق لها ، وهى الاحتمالات التى ظهرت بوادرها فى المائة سنة الماضية . وبهذا نبدأ سيرة جديدة ، وهى تخالف الأولى تمام المخالفة .

ونحن بنى الإنسان ، نواجه قوى هائلة ، وهى إما قضت على الإنسانية جمعاء ، وإما رفعتها الى مستوى لم يسبق له مثيل فى القوة والرخاء ، وعلينا أن نتحكم فى هذه القوى أو تقضى علينا . وإذا أحكم تدبيرها فقد تنفى العمل الشاق ، والفقر ، وقد تنفى العبودية بوسيلة واحدة محققة هى أن تجعل هذه الأشياء جميعاً ولا ضرورة لها . وقد أتيحت الفرصة لشيوعية حرب الطبقات أن تحقق هذا كله . ولكنها أخفقت . وهى الى الآن ، لم تفعل شيئاً سوى أن أحلت أوتوقراطية روسية محل اوتوقراطية أخرى روسية . ولا تزال ، الروسيا — كسائر بقاع العالم — تواجه مشكلة الحكم الصالح فى النظام الجماعى ، ولكنها لم تستطع لها حلا .

فقد خيبت آمالنا دكتاتورية الرعاع ، فيجب علينا أن نبحث عن وسائل التدبير فى نواح أخر . . . وهل نجدها ؟

الاشتراكية لا مفر منها

ولندرس الآن بعناية أكبر، وإن كنا سنلجأ إلى شيء من التكرار، الطريقة التي تنتهجها عوامل الانحلال في العالمين الشرقي والغربي.

فالعالم القديم مصاب بالتخمة في التسلح والعالم الجديد مصاب بالتخمة في الأعمال بنظامها الواسع وقد زاد الشعور في كليهما بالحاجة إلى التخفف الجماعي من العمل أو من المغامرة السياسية وكانا قد فقدا التناسب وزادا عن الطاقة.

وقام أصحاب المصالح الكبيرة في أمريكا بمعارضة رئيس الجمهورية، وكان زعيم الحركة الداعية إلى تحقيق الجماعية، وأرادوا الوقوف في وجه تحويل الأمة إلى الاشتراكية التقدمية، ولعلهم يعوقون الاتجاه نحو الاشتراكية إلى حد كبير وذلك بمضاعفة الخلاف بين الطبقات الاجتماعية.

ولكن من غير المعقول أنهم يجرؤن على أن يثيروا وأن يهزوا الكيان الاجتماعي بقلب الأوضاع فيه أو بالارتداد إلى أيام الأعمال العظيمة الزاهرة والمضاربات العنيفة والبطالة المستفحلة قبل عام ١٩٢٧ وكل ما يستطيعون، تعويق هذه الحركة ذلك لأن جميع الطرق في العالم الآن تؤدي إلى الاشتراكية أو الانحلال الاجتماعي.

والوقت الذي يتطلبه التحول يتفاوت في القارتين وهو الفارق الجوهري

بينهما . إنهما لا تتعارضان فلقد تفاوتت سرعة كل منهما وإن كان هدفهما واحداً ، ففى العالم القديم الآن تسير الحركة الاشتراكية بخطى أسرع وأثبت منها فى أمريكا وذلك للحرب التى تهددها على الدوام وتتقدم الحركة الاشتراكية والانحلال فى أوربا الغربية الآن بما يشبه الطفرة وحاولت الطبقة الحاكمة البريطانية ، أو الساسة البريطانيون عامة ، وقد أخذتهم صيحة الحرب التى لم يكن عندهم من الذكاء ما يوقيهم إياها أن يكفروا عن ضيق عقولهم فى العشرين سنة الماضية بعمل مرتجل غير فطين والله يعلم إلى أى حد بلغ استعدادهم الفعلى للحرب ولكن يظهر أن سياستهم الداخلية تقوم على دراسة غير وافية لبرشلونه ، ومدريد ، ووارسو فهم يتخيلون مصائب مشابهة على نطاق أوسع — وإن استحال ذلك ، كما يعرف كل متزن العقل يقدر الكمية الموجودة من البترول — ويفزعون من إلقاء المسئولية عليهم . إنهم يخافون يوما تحاسبهم فيه الطبقات الدنيا التى طال خداعها وهم فى ذعرهم يقوضون أركان النظام القائم . فالتغيرات التى حدثت فى بريطانيا العظمى فى أقل من عام تحير الألباب . وهم يذكرون فى مناسبات شتى إجلاء الناس فى روسيا فى الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٧ فقد كانت هناك نقلة وامتزاج بين الناس يستحيلان على أى فرد عام ١٩٣٧ إذ قامت السلطات بإجلاء الناس عن المناطق الآهلة تحت التهديد المبالغ فيه بالغارات الجوية بطريقة طائشة هوجاء . وانحلت أواصر مئات الألوف من الأسر وفرق بين الأطفال وآبائهم ، وأسكنوا بيوتاً أكره أصحابها على

قبولهم فيها فانتشرت فى طول البلاد وعرضها الأمراض الطفيلية والجلدية والرذائل والعادات غير الصحية من الأحياء الفقيرة فى مثل جلاسجو ولندن ولفربول وكان ذلك بنزعة من نزعات الدعوة إلى المساواة . فقد أقفلت السكك الحديدية والطرق وسائر المواصلات العادية بحركة عامة وظلت بريطانيا العظمى شهرين أشبه ما تكون بعش نمل مضطرب منها بقطر منظم متمدين وقد أصاب الشرر كل إنسان . ونقلت المنشآت العامة ودور الأعمال الكبيرة إلى مناطق بعيدة شاقة . واندفعت هيئة الإذاعة البريطانية من لندن بطريقة عجيبة ولغير سبب من لندن فلم يتبعها أحد وعم فى البلاد وباء شديد هو فصل الخدم — الذين يشتغلون فى لندن مثلا — وإقبال أشد على رجال غير لائقين لأعمال جديدة وغير ضرورية وقد حث كل امرىء على القيام بخدمة وطنية وسحب الأطفال فى سن الثانية عشرة من مدارسهم وأكرهوا على العمل فى الحقل وكذلك الفلاحون الرجعيون ومع ذلك فان عدد من فقد عمله منهم ولم يجد سواه يربو على المائة ألف .

وقامت هناك محاولات مرتجلة لتحديد الطعام فأحدثت وفرة هنا وندرة هناك وقضى على الأعمال الصغيرة المستغلة لمصلحة كبار المتعهدين الذين تحولوا فى ليلة وضحاها من متجرين على المكشوف إلى خبراء مستشارين فى مسائل التموين وكل الخبرة التى أظهروها هى استخلاص الربح من التموين وكلما أخذت أرباحهم فى الأزدياد عمدت الضرائب ، فى حزم شديد ، على تقليم أظفارهم .

والشعب البريطانى رابط الجأش فى الملمات قوى الجنان قليل الحظ من الفهم إلى حد لا يستسلم معه لعوامل الخوف بيد أن السلطات رأت من الضرورى أن تطلى الحوائط والجدران بلافتات كبيرة كثيرة النفقة على رأسها تاج ملكى وقد كتب عليها « إن شجاعتكم وعزمكم وبهجتكم ستكسبنا النصر » .

فإذا رأى أحد أبناء لندن هذه العبارات قال « لى ستكسبون النصر ما فى ذلك شك ، وستستغلون شجاعتى وعزمى وبهجتى وتدفعوننى إلى الجندية وتضحكون علىّ فى تلطف وتظنون أنكم تستطيعون إعادتى إلى كومة التراب مرة بعد مرة » كل هذا صحيح ، وسيظهر حكامنا هذه المرة بمظهر من لا يوثق بهم ويكرهون على مواجهة شعب مضطرب ثائر متسائل . لقد قطعوا على أنفسهم وعودا خلابة باعادة بولنده ولكنهم سيضطرون إلى تناسى هذه الوعود . أو لعل الحكومة تحل محلها أخرى تستطيع أن تمسح هذه الوعود وهى أرفع رأساً . والشعب لا ينتظر هذه المرة القيام بصلوات الشكر أو الاحتفال بليلة توقيع الهدنة فالناس فى إنجلترا يذوقون ويلات الحرب أكثر من الجند فى الميدان . فقد أغلقت دور السينما والمسارح قبل الأوان وقلل الظلام من أمن الناس وضاعف حوادث الطريق وأصبح الجمهور الانجليزى مكتئباً لم يره العالم فى مثل هذا الخلق السىء منذ قرن ونصف ولا نخطىء إذا قلنا إن استياءه من الألمان دون استيائه من حكامه .

وشق الاستعداد للحرب طريقه خلال هذه الدعاية المهيجة المندفعة عن

الاضطراب الداخلى وخلال العمل المنظم على إخفاء الأخبار الصحيحة والنقد المثير . ولا يجد المواطن المتحير المخدوع أمله إلا فى الجيش حيث الحياة أقل اضطرابا وتشويشاً . وفقد الناس الثقة فى كل شىء وفى الحكومة والنظام الاجتماعى بنوع خاص وأصبح المرء لا يأمن على عمله أو وظيفته أو مدخراته أو حتى على النقود التى فى جيبه . مع أن المجتمع الإنسانى يقوم على الثقة ولا يعيش إلا بها . هكذا كانت الأحوال ولما تزل الحرب فى بدايتها .

وللطبقة الحاكمة وأصحاب الأموال الذين يسيطرون على شئون بريطانيا مركز خاص . وتكاليف الحرب باهظة وليس هناك ما يدل على نقصانها . ورفعت ضريبة الدخل والضريبة الاضافية ورسوم الدفن والضريبة على أرباح الحرب إلى حد يقضى على الطبقة الوسطى التى كانت تعيش فى يوم من الأيام عيشة راضية والسراة يقل ثراؤهم وينخفض مستوى معيشتهم . أما طبقات أصحاب الحرف . وهى بين طبقة السراة وجموع الفقراء ، فحياتهم أشد عسراً ، تبهظهم التضحيات للحرب ، وتفشو بينهم البطالة ويزيد تطلعهم وتساؤلهم . ولن يجد الشاب البارع من فرجة يسبق منها أقرانه فى الثراء إلا بالمهارة الفائقة من استغلال أمواله والتهرب الخطر من الضرائب وما إلى ذلك من أعمال الضعة فى حين تصبح الوظائف العامة أكثر جاذبية ذلك لأنها أعظم فائدة وأكبر احتراماً وكلما طالت الحرب كلما زاد انحلال النظام القديم وتعذر اصلاحه .

وأنا أقول للقراء الكثيرين الذين يكذبون ما سقته فى القسم الأول من هذا الكتاب من أننا نعيش فى خاتمة عهد ، ولأولئك الذين لم ينسوا ما أوردته عن عوامل الانحلال التى تقوض النظام الاجتماعى القديم والذين يزعمون أنهم علميون أو ماديون أو اجتماعيون أو إنهم من خاصة المفكرين إلى الذين يقولون إن القدر الذى كان ولا يزال يتحيز بشكل واضح لسراة المتخمين بلداء العقول ، سيتلطف معهم فى اللحظة الأخيرة . . . أقول لأولئك وهؤلاء جميعاً إن المتاعب والآلام والتضحيات و اضطراب الحياة سيثبت لهم إن الثورة فى أوروبا الغربية توشك أن تندلع . ومن العسير أن نواجه الكثيرين من الطبقات الغنية و بخاصة إذا كانوا من الكهول ، بأن النظام القديم قد مزق إربا ولن تقوم له بعد ذلك قائمة . ولكن كيف يشكون ؟

لا بد من نشوب ثورة ، أو بعبارة أخرى لا بد من حدوث انقلاب يختلف قوة وضعفاً فى الأوضاع السياسية والاجتماعية فى هذه الأمم المجهدة ، فى ألمانيا ، وفى بريطانيا ، بل وفى سائر أنحاء العالم . لا بد أن نحصل على ثورة من أى نوع ولن نستطيع أن نقف فى وجهها ، ولكننا نستطيع أن نؤثر فى سيرها ، وقد تنتهى بالدمار وقد تبرز لنا عالماً جديداً من العالم القديم ومن ثم نستطيع أن ندبر الكيفية التى تكون عليها .

والسؤال العملى الوحيد أمامنا هو كيف نواجه هذه الثورة العالمية التى لن نستطيع أن نتفاداها واسمحوا لى بهذه المناسبة أن أذكركم بما أوردته

فى الفصل الثانى من هذا الكتاب عن الأسباب الداعية لطرح موقفنا الحالى للمداولة العامة وأن أنبهكم إلى ما ذكرته فى الفصل الرابع عن المذهب الماركسى ، فقد بينت هناك كيف اضمحلت بسهولة حركة جماعيه لقيت مقاومة ضعيفة متظاهرة بالقوة واحتمال الاضطهاد ممن بيدهم السلطة والثراء وتحولت إلى لون عتيق من ألوان حرب الطبقات وأصبحت حركة تآمر وتعصب لا يمكن الأخذ بها وانتهت بصورة من صور الاستبداد وعبادة الزعماء . هذا ما حدث لروسيا فى عهدها الحالى ونحن لا نعرف ماذا بقى من روح الثورة الأهلية . وأهم ما فى الموقف العالمى الحاضر هل نقصّ خطوات روسيا أم هل نتحد ونواجه الضرورة الملحة ونحدث ثورة غربية تغير من التجربة الروسية وتفعل فيها ويكون هدفها الوحيد التفاهم العالمى وما الذى يضايق عالم الأطلنطى أكثر من غيره فى عالم السوفييت اليوم ؟ أهو عدم موافقته للجماعية كما هى هناك ؟ ولقد احتفظ قليلون من الأكفاء لعلهم أقل من خمسين بفرديتهم فى المسائل السياسية والاجتماعية إنهم ليسوا من المناهضين للشيوعية وكل ما حدث أن ظلت الحياة السياسية للجماعة فى أيدى رجال من الطراز القديم لا يعقلون وتقاسى الأمم التى تعرف بالديمقراطيات من حكم الشيوخ الذين لم يسايروا الزمن ولا تقوم المعارضة الحقيقية الجدية أو عدم الثقة او عدم التسليم بالنظام السوفياتى على تخلف فردية هؤلاء الشيوخ الرجعية عن الزمن بل على الاعتقاد بأنها لن تبلغ الكمال المنشود ولن تحقق مثلها الأعلى القائل بأن الجماعة للفرد والفرد

للجماعة إلا إذا أطلقت فيها حرية القول واعترف قانونها بحريات الفرد داخل النطاق الجماعى ونحن لا نأسى على الثورة الروسية لأنها ثورة ، ولكننا نشكو من أنها ثورة لم تحقق ما نرجوه ولذلك فإننا نطلب ثورة أحسن منها .

وإذا أخضعت الأشياء للنظام الجماعى كان من الضرورى وضع دستور لحقوق الإنسان وقد أغفل السوفييت هذه الحقيقة فعاش الناس هناك غير آمنين من جور البوليس فكلما زاد سلطان الحكومة كلما اشتدت الحاجة إلى سن قانون لحماية الفرد . ويعترض على الجماعة السوفياتية أنها لن تعمر لأنه يعوزها قانون يضمن الحرية الشخصية ويحميها . وهى تزعم أنها فى جوهرها نظام اقتصادى عام يقوم على المبادىء المتصلة بحرب الطبقات فالمشرف على الصناعة يخضع لقوميسيون الحزب والبوليس السياسى يخرج عن الجادة وتنصاع الأمور نحو حكم الأقلية أو الحكم المطلق وتحمى عجزها بالقضاء على كل معارضة لها .

وتظهر لنا هذه الانتقادات الصحيحة نوع الجماعية الذى يجب أن نتجنبه

وإذا كنا لا نريد أن تكسحنا موجة التبلشف الآتية من الشرق فإن علينا أن نأخذ بهذه الانتقادات الصحيحة وأن ننشىء جماعية أصلح وأزهر وأسمح وأكثر نزوعا إلى الحرية والتقدم من النظام الذى انتقدناه ونحن الذين نكره الماركسية الستالينية ينبغى علينا أن نقهره بوضع خير منه . ونواجه الجماعية شرقية الروح بجماعية أخرى غربية الروح . وأوقفنا العقل

الباطن فى غرور فزعمنا أن الغرب دائما أرحب وأوضح تفكير وأدق عمل من الشرق فلكل أمة فترات إشراق وفترات عماية وليس ستالين أو الستالينية بداية الجماعية أو نهايتها فى روسيا .

ونحن نبحث موضوعا من المتعذر تحديده ومن الصعب أن نعرف إلى أى حد محت أو حجبتها الوطنية الروسية الجديدة . أو عبادة ستالين ، الشيوعية الروسية الفذة الإنشائية الدولية التى قالت بها الثورة . والعقل الروسى ليس طيّعاً والكتب التى فى متناول يد الشاب الروسى لا تزال ثورية ولم تحرف الكتب هناك وأخذت الحكومة الروسية فى راديو موسكو ، منذ أحدث التفاهم بين ستالين وهتلر قلقاً عاماً ، توضح للشعب الروسى بأنه لم يضح بشىء من مبادىء الثورة بهذا التفاهم مما يشهد بحيوية الرأى العام فى روسيا . وقد يكون لتصادم تعاليم ١٩٢٠ وتعاليم ١٩٤٠ أثر فى تحرير عقول الكثيرين . والروسيون يكلفون بمناقشة المبادىء والأفكار وكانوا يستطيعون ذلك أيام القيصر فهل يعجزون عنه أيام ستالين . وأهم موضوع مطروح على العالم اليوم هو هل تستشرق الجماعية أم تستغرب ؟ نريد ثورة واضحة كل الوضوح ، وثورتنا يجب أن تأخذ سبيلها فى النور والهواء . وقد نضطر إلى الأخذ بالسوفياتية إذا لم ننتج جماعية أحسن منها ؛ وإنتاج جماعية أحسن أكثر احتمالا من أن النظام الروسى لا يأخذ بتعديلاتنا ، ولا ينسى وطنيته المجددة ، ولا يهجر ما يمكن أن يهجره من ماركس وستالين ولا يندمج فى الدولة العالمية الموحدة وبين هاتين القوتين المتعارضتين .

بين الثورة المبصرة والثورة المحجوبة العينين ، سيحدث ارتباك يرجع إلى الوطنية والتعصب والعماية المتعمدة الحمقاء لأولئك الذين لا يريدون أن يبصروا وأكثر الناس ينتجون لأنفسهم أكثر مما ينتجون لغيرهم . ومن العبث أن نتوقع أن إدراك ما يتطلبه الموقف البشرى ، وهو ما أوردناه فى موضع آخر ، يقضى على المذاهب والتقاليد الممسك بعضها بخناق بعض والتى تحير اليوم عقل الجنس البشرى والأقلون هم القادرون على تغيير آرائهم بعد الثلاثين أما الأكثرون فيتشبثون بآرائهم ويندفعون وراءها اندفاع الحيوان بفطرته وهم يفضلون الموت على تغيير طبيعتهم الثابتة .

وأشد المشكلات القانونية هو ما يصدر عنها للكنيسة الرومانية الكاثوليكية من مؤامرات مستمرة حمقاء . إننى أتحدث عن الفاتيكان ومحاولاته التدخل فى السلطة الزمنية وكثيرون من أصدقائى الكاثوليك أكسبتهم عقيدتهم شخصيات جذابة وخلقاً عظيما ومن أحسن هؤلاء ه . ك شسترتون . ولكنى أظن أنه كان على دماثته قبل اعتناقه الكاثوليكية . فهناك أولياء وقديسون فى جميع الأديان وخارج الأديان ويرى الكثيرون أن القيام بفرائض الدين ضرورى جداً لتنظيم حياتهم . ويميل عدد كبير من غير المتمسكين بالفرائض إلى القول بأن الرفق والطيبة هما المسيحية وعلى هذا الأساس يقول الكاتب الكاثوليكى الفريد نويس إن فولتير كان مسيحياً طيباً وأنا لا أستعمل المسيحية على هذا المعنى لأننى أعتقد أن عمل الخير ليس احتكاراً وإذا كتبت عن المسيحية فاننى لا أقصد بها هؤلاء الأخيار

الطيبين و إنما أقصد بها عقيدة محددة ونظاماً صارماً . ويرجع إلى سلطان الكنيسة تأييد السياسة البريطانية الخارجية الغشوم لفرانكو المسيحى السفاح فى قلب نهضة أسبانيا الحرة وعلى البريطانيين والفرنسيين أن يحمدوا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على خطئهم الفاحش الذى جرهم إلى الدفاع عن الحكومة البولندية المتعذر قيامها ومطالبها التى لا حق لها فيها . وقد أثرت هذه الكنيسة فى السياسة البريطانية تأثيراً عميقاً مخالفاً وتشيكوسلوفاكيا وهى الآن تبذل قصاراها فى الإبقاء على الجفوة السياسية بين الروسيا والعالم الغربى ومضاعفتها ، بنشر تلك الفكرة القائمة على الهوى وهى أن روسيا لا تؤمن بالله ، فى حين أننا نحن الغربيين من أبناء النور نحارب مستبسلين للدفاع عن الصليب وعن القدرة الإلهية وعن بولندة الكبرى وعن سيادة الشعوب وعن الفلاح الصغير وصاحب الدكان وغير ذلك مما نحب أن نتصور أنه يؤلف المسيحية . ويبذل الفاتيكان جهده باستمرار على أن يحول الحرب الحاضرة إلى حرب دينية وهو يحاول بذلك أن يشرف الحرب وستستمر الكنيسة على ذلك حتى تنشب ثورة اقتصادية تغتصب أموالها . وسرعان ما يزول سلطانها كعامل مؤثر فى السياسة . ويتبعها سلطان الكنيسة الأنجليكية وكثير غيرها من الفرق البروتستانتية مثال ذلك المعمدانيون الأثرياء .

ولا تؤثر دعاية هذه الكنيسة فى الشئون البريطانية فحسب ولكنها تؤثر فى شئون غيرها كذلك فقد أصبحت فرنسا عند قيام الحرب عسكرية

كاثوليكية وقمت الحزب الشيوعى دليلا على كراهيتها لروسيا وإحتياطاً من جماعية بعد الحرب. ويصور الرسام الكاريكاتورى البلچيكى دْيميكرز هتلر فى صورة مخلوق ضعيف حزين يستدر الإشفاق فى حين أنه يصور ستالين فى صورة مارد مخيف له قرون وذنب ومع هذا كله فإن فرنسا وإنجلترا تحالفان روسيا وكل الظروف تدعوهما إلى التفاهم العملى مع هذه الآن . وكان موقف روسيا من الحرب فاتراً مستهزئاً متعقلا .

وكأنما لا تقودنا هذه الخطط الشاملة إلى شىء ، فأنت تواجه الساسة الكاثوليك كما تواجه ساسة وستمنستر بهاتين الحقيقتين الجوهريتين وهما الغاء المسافة وتبدل المقياس . ولكن بلا جدوى فلن تحصل على فهم لهاتين الحقيقيتين من رؤوس لا تنفذ الأفكار إليها . فهم إزاءها صم وعميان انهم لا يستطيعون أن يروا أنها تحدث تغييراً ما فى عاداتهم العقلية الراسخة وإذا تحركت عقولهم لحظة فانهم يتمتمون بتعويذة سحرية يطردون بها ذلك الوميض . ماذا يفعل الشباب خيراً من قمع حاجياتهم الطبيعية فى الحياة والعمل ؟ وماذا تصنع الحياة المجردة مع النظر الدينى ؟

ويعد دعاة الفاتيكان الحرب جهاداً ضد التجديد والاشتراكية وحرية الفكر وهدفها إعادة سلطان الكهنوت ويحارب أبناؤنا ليساعدوا الدين على أن يحول بورعه بين القارىء والكتاب وبين الطفل والمعرفة وبين الزوج والزوجة وبين الأبناء والعشاق بينما يحارب المخلصون فى الواقع لوضع حد للطغيان العسكرى والقضاء على الحرب بالحرب . ولكن هؤلاء

المتعصبين يقلبون الوضع و يحاولون إظهار الحرب بمظهر الجهاد الدينى ضد روسيا خاصة وضد الروح الجديدة عامة .

إن الكنيسة الكاثوليكية تجاهر بمقاومة الجهد البشرى وفكرة التقدم وتعوق هذه الجهود المتعارضة وتقعد بل وتقضى على كل محاولة لحل مشكلة إيجاد جماعية معقولة فى العالم . ولكنها لا تغير من الحقيقة الأساسية وهى أنه لا مفر من الدمار العالمى الحاضر إلا باتحاد الحركات الثورية الإنشائية فى كل مكان وتنظيمها والتغلب على تعصب حرب الطبقات .

الاتحـــاد

ولنتناول الآن بعض المقترحات الإنشائية الغامضة التي يبدو أنها تدور كثيراً في أذهان الناس في الوقت الحاضر . ويتجلى أساس هذه المقترحات في كتاب عنوانه «الاتحاد الآن» بقلم المستر كلارنس ك . شتريث . وهذا الكتاب هو الذي أبرز للعالم كلمة « الاتحاد » السحرية . « فديمقراطيات » العالم يجب عليها أن تتفق فيما بينها على نوع من التوسيع للدستور الاتحادي للولايات المتحدة (ذلك الدستور الذي أنتج حرباً من أشد الحروب الدموية في التاريخ كله) وعندئذ تستقيم أمورنا جميعاً .

فلننظر إن كان لهذه الكلمة « الاتحاد » أية قيمة في تنظيم الثورة الغربية . يبدو لي أنها ذات قيمة . فهي في ظني قد تكون وسيلة للتحرر الفكري لكثير من الناس الذين لولاها لظلوا يقاومون بغباء كل نوع من التغيير .

إن لمشروع الاتحاد هـذا صبغة من التعقل . إنه يجتذب عدداً من ذوي النفوذ الذين يرغبون — بأقل ما يمكن من التكيف حسب الظروف الجديدة — أن يحتفظوا بنفوذهم في عالم متغير . وإنه ليجتذب بخاصة تلك العناصر التي يمكننا أن نسميها العناصر « الحرة المحافظة » من

الطبقات الميسورة الحال فى أمريكا وبريطانيا العظمى والأقطار الشمالية وذلك لأنه يضع أشد جوانب المشكلة تعقيداً — وهو الحاجة إلى اشتراكية جماعية — يضع هذا الجانب كله فى قرار البحث ، حتى إنه ليمكن إغفاله وهذا يمكنهم من أن ينظروا إلى المستقبل نظرة مشرقة آملة ، بغير أن يكون هناك عائق جدى يمنعهم عما يشغلهم فى الوقت الحاضر :

هم يظنون أن الاتحاد — إذا أحسن فهمه وتعريفه — قد يبعد زمناً طويلاً إمكان حدوث الحرب ، ويقلل من عبء الضرائب حتى تخف عنهم وطأة المطالب الفادحة التى يطالبون بها فى هذه الأيام ، وحتى يستطيعوا أن يستأنفوا — ولو بقليل من الاقتصاد — حياتهم القديمة . وإذن فيجب أن تشجع كل ما يمنح هؤلاء القوم الأمل واحترام الذات ، ويحفظ بيوتهم من شَبَح الذعر والمداراة وما إليها ؛ وسيجد أبناؤهم فى تلك الأثناء متسعاً من الوقت للتفكير ؛ وربما أمكن أن يُبحث مشروع شتريت ويمحّص ويضبط ، حتى تؤخذ منه خطة عملية صريحة لتحويل العالم إلى الاشتراكية .

لقد بحثت كلمة الديمقراطية بشىء من العناية فى مصير الإنسان ، إذ كان يبدو فى ذلك الوقت أن دعوة شبابنا إلى بتر حياتهم والمخاطرة بها فى سبيل هذه الديمقراطية أمر قريب الاحتمال . وقد بينت أنها ما تزال مطمحاً ضئيل الحظ من التحقيق ، وأن نضجها التام يتضمن الاشتراكية ويتضمن مستوى من التعليم والإرشاد لم يصل إليه حتى اليوم أى مجتمع فى العالم .

أما المستر شتريث فيقرر فهمه للديمقراطية تقريراً أمثل حظاً من التجديد وأوفى حظاً من الجمال البيانى . أو ان شئت فقل إنه تقرير أدنى إلى المثالية تقرير يعد مبالغة عنيفة حتى لو كان دعاية حرب . ومع بعد هـذا التقرير عن كل دافع فعلى — وهى حقيقة يؤسف لها — فإن المستر شتريث يمضى عنه بغير أن يناقشه ، كأنما هو وصف للحقائق المماثلة فيما يسميه « ديمقراطيات » العالم . فهو يخال أنه يجد فى هذه الديمقراطيات « حكومة الشعب ، بالشعب ، وللشعب » .

وقد بحثت فى الكتاب الذى أسلفت ذكره هاتين المسألتين : « ما الديمقراطية ؟ » و « أين الديمقراطية ؟ » وحاولت هناك جهدى أن أنزل بالمستر شتريث إلى الحقائق الصعبة الخشنة فى هذه القضية . وسأمضى الآن إلى مدى أبعد من التفصيل عند ما أختبر مشروعه .

إن « الديمقراطيات المؤسسة » عنده يجب أن تكون : الاتحاد الأمريكى ، وحكومة الشعب البريطانية (وخاصة المملكة المتحدة ، ومستعمرة كندا الاتحادية ، وحكومة الشعب الاسترالية ، ونيوزيلندا واتحاد جنوب أفريقيا . وأيرلندا ، والجمهورية الفرنسية ، وبلجيكا ، والاتحاد السويسرى ، والدنمرك ، والنرويج ، والسويد ، وفنلندا) .

وقد بينت فى ذلك الكتاب السابق أن هذه الدول لا تكاد توجد بينها ديمقراطية واحدة كاملة التطبيق واتحاد جنوب أفريقيا بخاصة مثل سىء خطر للاستبداد الجنسى . وأيرلندا هى حرب دينية بادئة وليست

قطراً واحداً بل قطران . ومن الملاحظ أن بولندا لا تدخل البتة فى قائمة الديمقراطيات عند المستر شتريث . فقد وضع كتابه فى سنة ١٩٣٨ عند ما كانت بولندا بلداً دكتاتوريا يحتل رغم أنف عصبة الأمم مدينة ڤلنا التى انتزعها من لتوانيا ، ومساحات واسعة من أراض غير بولندية غزاها من روسيا ، ونثائر كسبها من تمزيق تشكوسلوفاكيا . ولم تصبح ديمقراطية — بالمعنى الاصطلاحى من هـذه الكلمة ، ولفترة وجيزة — إلا قبل سقوطها فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، حينما بلغ الحمق بالمستر تشمبرلين أن جر الامبراطورية البريطانية إلى حرب خطرة باهظة النفقات فى سبيل بولندا . ولكنى أقول هذا فى ثنايا الحديث . إن جميع هذه « الديمقراطيات المؤسِّسة » الخمس عشرة (أو العشر) ليست ديمقراطيات على الإطلاق . وإذن فنحن نبدأ بداءة سيئة . ولكنها يمكن أن تجعل ديمقراطيات اشتراكية ويجعل اتحادها شيئاً حقيقياً واقعياً — وذلك بثمن . إن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية الروسية هو نظام اشتراكى اتحادى ، أظهر فى العقدين الماضيين تكتلا سياسياً وافر الحظ من النجاح ، مهما كانت الأشياء الأخرى التى فعلها أو قصر عنها .

والآن فلنساعد المستر شتريث على أن يحول « اتحاده » من أمنية نبيلة ولكنها نظرية إلى أبعد حد ، حتى يكون حقيقة حية . إنه يدرك أن هذا يجب أن يتم بثمن . ولكننى أريد أن أقول إن هذا الثمن أعظم كثيراً مما يتصور ، وإن التغير أبسط كثيراً وأعم كثيراً بل لعله أقرب منالاً مما

يتصوره أيضاً ؛ هذا إن كنت صادق الحكم على وجهة نظره . فهو يميل إلى اللجوء إلا المنظمات الإدارية الحاضرة ، ومن المشكوك فيه أن هؤلاء الناس هم الذين يمكنهم تنفيذ خططه . ومن الصعوبات التي يغض بصره عنها احتمال أن تأبى الإدارة الهندية تسليم حكم الهند (وهو لا يذكر سيلون وبورما) إلى الحكومة الاتحادية الجديدة ، التي ستتكفل أيضاً — على ما أظن — بسكان جزر الهند الشرقية الهولندية ، الذين يُحكمون حكماً حسناً ويحيون حياة طيبة ، وبالإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية ، وبجزر الهند الغربية ، وهلم جرا . وهذا معناه أنه إن لم يكن يقترح ابتكار أسماء جديدة للادارة الهندية وما إليها ، فهو يطلب ذروة عظيمة من الكفاءة والأمانة لدى موظفي الاتحاد الجديد . ومعناه أيضاً أخذ مساهمة هؤلاء الخمسمائة أو الستمائة المليون من الشعوب السمراء — أخذ مساهمتهم الممكنة في النظام الجديد مأخذاً هيناً لا يتفق مع المثل الديموقراطية .

إن عدداً كبيراً من هؤلاء الناس لهم أذهان كالأذهان الأوربية المتوسطة أو خير منها . وإنك لتستطيع في جيل واحد أن تثقف العالم كله إلى مستوى خريج كمبردج — وهو ليس بالمستوى الشامخ جداً — إن كان لديك ما يكفي من المدارس والمعاهد والأجهزة والمعلمين . وقد جعل الراديو والسينما والجراموفون ، والتحسينات التي أدخلت على الإنتاج والتوزيع كليهما ، قد جعلت من الممكن أن يزاد مدى المدرس الموهوب وتأثيره ألف ضعف . ولقد طالما رأينا تركيز الاستعداد المربي ، ولكن

أحداً لم يحلم قط بتركيز الجهد التعليمى ، فلا أحد منا يرغب حقاً فى أن يرى غيره من الناس يتعلمون ، إذ قد يظفرون بشىء من التفوق على نفوسنا الممتازة . لم لا نتغلب على هذه الغيرة البدائية ؟ لم لا نسرع — ونحن نستطيع ذلك الآن بما لدينا من قوى مادية — لم لا نسرع بتعليم هذه الودائع الضخمة غير المهذبة من المقدرة الإنسانية ؟ لم لا نلحق هذه الفكرة بفكرة الاتحاد الآن ؟ لم لا نقرر أن الاتحاد — حيثما امتد — يعنى تعليماً قوياً جديداً : فى البنغال وفى جاوة وفى حكومة الكنغو الحرة كما فى تينيسيا أو جورجيا أو سكتلندا أو إيرلندا ؟ لم لا نقل بعض الإقلال من التفكير فى « التحرير التدريجى » بالتصويت وتجارب الاستقلال المحلى وما إليهما من الأفكار القديمة ، ونكثر بعض الإكثار من التفكير فى تحرير العقل ؟ لم لا نترك هذه الشقشقة القديمة عن الشعوب التى لم تنضج سياسياً ؟

هذه إحدى النواحى التى يمكن فيها إدخال شىء من التحسين على مقترحات المستر شتريث . فلننظر إلى ناحية أخرى يبدو منها أنه لم يتبين كل ما ينطوى عليه اقتراحه . سوف يكون لهذا الاتحاد العظيم نقود اتحادية ونظام اقتصادى اتحادى خال من الضرائب الجمركية . فما الذى سيترتب على هذا ؟ يخيل إلى أن ما سيترتب عليه أكثر مما يبدو للمستر شتريث .

هناك ناحية من نواحى النقود يبدو أن أكثر الباحثين عاجز كل العجز عن إبصارها . إنك لا تستطيع أن تكوّن نظرية عن النقود أو تضع لها خطة ما بأن تنظر إليها مستقلة عن سواها . فالنقود ليست شيئاً

قائماً بذاته ، بل هى جزء فعال من نظام اقتصادى . والنقود تختلف طبيعتها باختلاف قوانين الملكية وأفكار الملكية فى المجتمع . ففى سير المجتمع مثلاً نحو الجماعية أو الشيوعية تتبسط النقود . فالنقود لازمة فى الشيوعية لزومها فى أى نظام آخر ، ولكن وظيفتها هناك أبسط ما تكون ؛ فلو نال العامل أجره أشياء لما كان حراً فى أن يختار من بين ما ينتجه المجتمع من بضائع . ولكن النقود تمنحه هذه الحرية . فالنقود تصبح الحافز الذى « يجعل العامل يعمل » ، ولا شىء أكثر من هذا .

ولكنك حالما تعدو السماح للأفراد بالحصول على بضائع يستهلكونها ، إلى السماح لهم أيضاً بالحصول على مواد لأنواع من الإنتاج غير الأنواع الرئيسية فى المجتمع ، حالما تصنع ذلك تظهر مسألة القروض والاعتمادات ، وتصبح النقود أكثر تعقيداً . وكلما حُرِّر نوع من أنواع الإنتاج أو فرع من فروع العمل فأخرج من السيطرة الجماعية إلى العمل الحر أو إلى الاستغلال التجريبى ، عظم الدور الذى يلعبه النظام النقدى وزادت القوانين التى تحدد ما يمكن عمله بالنقود ، وما يمكن استدراره منها من فائدة ، وقوانين الشركات وقوانين الإفلاس وما إلى ذلك . ولا بد أن تمنح الحكومة فى أى نظام جماعى متقدم اعتمادات للمشروعات التجريبية التى يرجى لها النجاح . فإذا كان النظام غير جماعى ، فإن العمليات النقدية التى يقصد منها الكسب لا بد أن تتسلل إلى النظام ويزداد تعقدها شيئاً فشيئاً ، وحيث يوكل معظم الجانب المادى من الحياة إلى النشاط الفردى

غير المنسق ، يزداد تعقد الآلة النقدية ازدياداً عظيماً ؛ ويصبح استعمال النقود عاملاً متزايد العِظَم فى صراع المنافسة ، لا بين الأفراد والشركات فحسب بل بين الدول ويبيّن المستر شتريث نفسه فى بحث ممتاز عن ترك قاعدة الذهب ، أن التضخم النقدى والتقلص النقدى يصبحان حيلتين فى المنافسة العالمية . فالنقود تغدو ستراتيجيّة ، كما يمكن أن تغدو أنابيب البترول وخطوط السكك الحديدية ستراتيجية .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الواضح أن وجود نقد موحَّد فى الدول الاتحادية يعنى وجود حياة اقتصادية موحدة تشمل الاتحاد كله . وهذا مُضمَّن أيضاً فى نظام شتريث الاقتصادى الخالى من الضرائب الجمركية . فمن المستحيل أن يكون هناك نقد موحد إذا كان الدولار أو الجنيه أو غيرهما يستطيع أن يشترى امتيازاً من الامتيازات فى إحدى الدول ، ويحال بينه وبين كل شىء سوى شراء المواد الاستهلاكية فى دولة أخرى . وإذن فلا بد أن يكون هذا النظام الاتحادى نظاماً اقتصادياً موحداً ، ولا يمكن أن توجد فيه سوى اختلافات طفيفة فى الإشراف على الحياة الاقتصادية .

ولقد أوضحنا فى الفصول السابقة القوى التى تقود إلى جماعية العالم أو إلى الكارثة . وينتج من هذا أن « الاتحاد » يعنى اشتراكية موحدة فعلاً داخل نطاق الاتحاد ، تؤدى باندماج دولة بعد أخرى إلى الاشتراكية العالمية . وجلى أننا هنا نحمل المستر شتريث إلى غاية أبعد من الغاية التى

يتبينها حتى الآن . إذ من الواضح أنه يخال أن قدراً كبيراً من العمل الحر الخاص سيظل قائماً فى الاتحاد كله . ولا أدرى إن كان يظن من الضرورى أن نتجاوز ذلك القدر من الاشتراكية الذى تحقق فعلاً بالتقسيم الجديد[١] . ولكننا جمعنا من القرائن ما يدل على أن التسابق إلى الربح قد مضى أوانه، على أن تلك الأيام الضيقة أيام «العمل الحر» قد انطوت إلى الأبد .

ثم إنه مع إدراكه وتقريره الجلى لأن الحكومات جعلت من أجل الإنسان ولم يجعل الإنسان من أجل الحكومات ، ومع تصفيقه لتلك التصريحات العظيمة التى أعلنها المؤتمر الذى خلق الدستور الأمريكى ، حيث ارتفعت « نحن شعب الولايات المتحدة » فوق مساومة الدول المختلفة وأقامت الدستور الاتحادى الأمريكى ؛ مع هذا فانه يحاذر محاذرة عجيبة أن يُحلّ محل أية حكومة شرعية قائمة فى العالم الحاضر حكومة أفضل منها . هو يحاذر أن يتحدث عن « نحن شعب العالم » . ولكن كثيرين منا قد أخذوا يدركون أن جميع الدول القائمة يجب أن تدخل فى إنبيق الصهر ، ونحن نعتقد أنا مقبلون على ثورة عالمية ، وأن الحكومات المعاصرة قد تختفى فى الصراع العظيم لإنشاء اشتراكية عالمية غريبة الصبغة كما تختفى قبعات القش فى شلالات نياجرا . على أن المستر شتريت يصبح عند هذه المرحلة شرعى العقل شرعية عجيبة . ولا أظنه يتبين قوى التدبير التى تتجمع ، ومن ثم فهو على ما أرى يتردد فى تخطيط بناء على نطاق كالنطاق الذى قد يصبح ممكناً .

(١) The New Deal.

بل إنه ليتجنب هذه الضرورة الواضحة ، وهى أن مَلَكيّات بريطانيا العظمى وبلجيكا والنرويج والسويد وهولندا ، إن بقيت على الإطلاق فى ظل الحكومة الاتحادية ، فلا بد أن تصبح شبيهة بالملكيات التابعة فى الدول التى تكونت منها الإمبراطورية الألمانية السابقة : مجرد بقايا شرف . ولعله يرى هذا ولكنه لا يقوله صراحة . ولا أظنه تأمل سوق نيويورك سنة ١٩٣٩ أو مغزى الزيارة الملكية إلى أمريكا ذلك العام ، ثم قرركم من النظام البريطانى تركه لو أصبح اتحاده حقيقة واقعة . إن هذا النظام البريطانى . يجب أن يفقد كثيراً من « بريطانيته » . وقد كوّن المستر شتريت مثاله الذى وضح به ذلك الدستور تكويناً قضائياً بحتاً ، مغفلاً التغيرات الأساسية فى الظروف الإنسانية ، تلك الظروف التى يجب أن نوفق أنفسنا لها أو نفنى . فهو يفكر فى الحرب قائمة بذاتها لا كانفجار ناشىء من تنافرات عميقة . ولكننا إذا مضينا بفروضه الأولى حتى نهايتها اللازمة ، لم نحتج إلى أن نعنى كثيراً بدستوره النموذجى ذاك ، الذى يرمى إلى تحقيق التوازن العادل بين الدول الداخلة فى تكوين الاتحاد . فمن المحتم أن يحل إلغاء المسافة محل الاتحادات ذات الوظائف المعينة ومحل التبعية لنظام إقليمى ، هذا إن لم يتحطم المجتمع الإنسانى تحطماً تاماً . وسوف تنصهر الأقسام الإقليمية فى جماعية عالمية ويصير الصراع فى اتحاد يتقدم دائماً نحو التوحيد صراعاً فى أغلب الظن بين أنماط واتحادات من العمال مختلفة ممتدة فى العالم كله .

يكفي ما قلناه عن الاتحاد الآن . إن من أظهر مزايا المستر شتريث أنه جرؤ على أن يتقدم بمقترحات محددة نستطيع أن نقبض عليها . ولا أظن أن أوروبياً كان يستطيع إخراج كتاب كهذا . فقانونيته السياسية البريئة ، وفكرة الارتكان إلى الدستور التى قام عليها ، وإيمانه الظاهر بما للعمل الفردى الحر من نفع سحرى ، كل ذلك ينم عن روح الرجل الأمريكى ، بل إن شئت الرجل الأمريكى قبل التقسيم الجديد ، الرجل الأمريكى الذى لم تزده خبرته بالاضطراب الضارب بجذوره فى أوربا إلا إمعاناً فى أمريكيته ، إن كانت قد زادته شيئاً . وما زال كثير من الأمريكيين ينظرون إلى شئون العالم نظرة المتفرجين إلى حفلة رقص ، قد يجأرون محبذين ولكنهم لما يشعروا بمشاركة حقيقية ؛ فهم لا يدركون أن الأرض تميد تحت مقاعدهم أيضاً ، وأن الثورة الاجتماعية تشق سطح الأرض لتبتلعهم بدورهم . إن فكرة حدوث تغير أساسى فى أسلوب حياتنا لتبدو لأكثرنا — أو لأكثر من جاوزوا الأربعين على أية حال — فكرة غير مستساغة حتى إننا لنقاومها إلى اللحظة الأخيرة .

والمستر شتريث يبدى أحياناً شعوراً بالانهيار الاجتماعى المقبل واضحاً كشعورى ، دون أن يخطر بباله أن هذا الانهيار ربما كان نهائياً . قد تكون هناك عصور مظلمة ، وارتداد إلى الهمجية ، ولكن الإنسان لابد أن يعود فينهض فى وقت ما وبطريقة ما . وقد أخذ چورج برناردشو يقول مثل ذلك أخيراً .

وربما كان الأمر شراً من هذا .

إنى لم أكد أقول كلمة تقريظ فى المستر شتريث ، لأن المقام ليس مقام تقريظ ، فقد كتب كتابه مخلصاً على أنه مساهمة حقة فى المؤتمر العالمى غير المنظم الذى يجرى الآن ، معترفاً بإمكان الخطأ ، طالباً النقد ، وقد عالجت الكتاب بذلك الروح نفسه .

غير أن كلمته قد ذهبت لسوء الحظ إلى أبعد مما ذهب إليه كتابه . فكتابه يقول أشياء محدودة واضحة ، وهو — حتى لو خالفه المرء — جيد كنقطة للابتداء . ولكن أناساً قد التقطوا كلمة « الاتحاد » هذه ، وإن عقولنا لتضل بين الدعوات العديدة لتعضيد مشروعات اتحادية تتضمن أشياء جد مختلفة أو لا تتضمن شيئاً على الإطلاق .

فكل أولئك العشرات والمئات من آلاف القوم الظرفاء الذين كانوا منذ أعوام قليلة يوقعون مواثيق السلام وما شابهها ، دون أن يبذلوا أدنى جهد ليفهموا ماذا يقصدون بالسلم ، هؤلاء القوم يرددون الآن هذه الكلمة السحرية الجديدة دون أن يكونوا بمدلولها أعلم . هم لا يدركون أن السلم يعنى تنظيما وموازنة للمجتمع الإنسانى بالغى التعقيد والصعوبة ، حتى أنه لم يحفظ قط منذ أصبح الإنسان إنساناً ، ولا أن ما نجده من الحروب والفترات التمهيدية بين الحروب راجع إلى أن هذه الدورة أعظم بساطة وسهولة لجنسنا العنيد المختلط الفكر الشكاك المعتدى . إن هؤلاء الناس ما زالوا يظنون أننا نستطيع الحصول على هذا الوضع الجديد الرائع بأن نصفق له فحسب .

وإذ فشلوا فى الحصول على السلم بتكرار كلمة « السلام » ، فهم الآن يرددون كلمة « الاتحاد » وكأنهم عثروا على ضالة منشودة . ولست أدرى ماذا يحدث لذوى المراكز الخطيرة من الناس ، ولكن أديباً غير مسئول مثلى يجد نفسه غارقاً فى بحر من الخطابات الخاصة المطولة ، والبطاقات الجنونية ، والرسائل التى تصدرها هيئات ناشئة ، والتصريحات التى يراد توقيعها ، والتبرعات التى يراد دفعها ؛ وكل ذلك باسم هذا الترياق الجديد الذى يشفى من كل داء ، وكل ذلك باطل مضيّع كثغاء الخراف الضالة . ولا أستطيع أن أفتح صحيفة بغير أن أجد أحد مشاهير المعاصرين وقد كتب إليها خطاباً يقول فيه بلطف وحزم وشجاعة تلك الكلمة نفسها ، وربما ألحق بها شذرات من الاتحاد الآن ، وربما أدخل عليها تنقيحات ثانوية ، ولكنه فى أغلب الأحيان لا يتجاوز الفكرة مجردة .

وقد انبعثت شتى الحركات المثالية التى تستهدف السـلام العالمى — تلك الحركات التى ظلت تتحدث إلى نفسها بهدوء سنوات وسنوات — لتتبع اللواء الجديد . وكان هناك قبل الحرب العظمى بزمن طويل كتاب للسير ماكس وختر صديق الملك إدوارد السابع ، يدعو إلى ولايات متحدة أوربية ، وتردد هـذا القياس الغرّار على الولايات المتحدة الأمريكية مرات كثيرة ؛ فجاء على سبيل المثال فى عبارة ألقاها المسيو بريان وفى مشروع قدمه كاتب نمسوى يابانى هو الكونت كودنهوف كالسرجى الذى لم يقصر دون ابتكار علم للاتحاد . وأهم اعتراض يوجه إلى الفكرة

هو أنه لا تكاد توجد دول أوربية كاملة فى أوربا ، عدا سويسرا وسان مارينو وأندورا ودول قليلة أخرى تمخضت عنها معاهدة فرساى . وجميع الدول الأوربية الباقية تقريباً تمتد إلى مدى أبعد بكثير من الحدود الأوربية ، من حيث السياسة أو من حيث الميول النفسية والصلات الثقافية ، ؛ فهى تجر معها أكثر من نصف العالم . فعشر الأمبراطورية البريطانية تقريباً فى أوربا ، وأقل من عشر الأمبراطورية الهولندية ، وروسيا وتركيا وفرنسا أدنى إلى أن تعد غير أوربية منها إلى أن تعد أوربية ؛ وأسبانيا والبرتغال لهما صلاتهما المتينة بأمريكا الجنوبية .

وقليل من الأوربيين يفكرون فى أنفسهم على أنهم « أوربيون » . فأنا مثلاً إنجليزى ، وشطر كبير من علائق الفكرية والمادية وراء المحيط . وأنا أكره أن أقول عن نفسى إنى « بريطانى » ، وأحب أن أفكر فى نفسى على أنى عضو فى مجتمع عظيم إنجليزى اللسان ، يمتد بلا اعتبار للجنس واللون فى طول العالم وعرضه . ويضيق صدرى إذا دعانى الأمريكى «أجنبياً» — فالحرب ضد أمريكا تبدو لى أمراً جنونياً كالحرب ضد كورنوال . وإنه لمن أثقل الأمور على نفسى أن أنفصل عن شعوب أمريكا وآسيا المتكلمة الانجليزية كى أسير تحت علم صديق النمسوى اليابانى إلى أوربا جديدة حزمت بعضها مع بعض فى « اتحاد » .

وعندى أنه أيسر جداً أن نخلق ولايات متحدة عالمية — وهذا هو

الغرض النهائى الذى يستهدفه المستر شتريث — من أن نوحد ما يسمى بالقارة الأوربية أى نوع من التوحيد .

وإنى لأجد أكثر هذه الحركات التى ترمى إلى خلق ولايات متحدة أوربية ، أجدها تمشى فى ركاب فكرة الاتحاد .

فهذا صديقى وخصمى القديم اللورد داڤيد داڤيز قد أصابته العدوى فى هذه الأيام . وقد كان معنياً بمشكلة الأمن الدولى أيام أدمجت جمعية عصبة الأمم وغيرها من الهيئات الجامعة فى اتحاد عصبة الأمم ، وعند ذلك خطرت له فكرة أو تشبيه ، وكان الأمر عنده تجربة فريدة : تساءل لم يغدو الأفراد ويروحون فى المجتمعات الحديثة وهم آمنون كل الأمن أن يُعتدى عليهم أو يسلبوا مالهم ، وليست بهم حاجة إلى التسلح . وأجاب إنه رجل البوليس . ومن ثم تساءل ماذا تحتاج إليه الدول والشعوب كى تمضى هى الأخرى فى شئونها ناعمة آمنة من الاعتداء والسلب ، وأجاب « البوليس الدولى » ، وبدت له إجابة كاملة معقولة . وهو يرددها منذ أعوام . ولقد يلوح أحياناً أن القوة التى ستحمل هذه المسئولية الخطيرة هى عصبة الأمم ، وأحياناً أنها الأمبراطورية البريطانية ، وأحياناً أنها قوة طيران دولية . ولم يُذكر المقعد الذى سيجر الشرطى أمامه الجانى ولا مكان الحجز . ولما وجد سعادة اللورد أن نقدنا لا يجانس فكرته ، مضى بفكرته العظيمة ليفرضها وحده ، كأنه الطائر البحرى وجد بيضة . ولعله أن يستريح سنوات طويلة من ذكر « البوليس الدولى » ، ولكنى

لا أظنه أدرك أو سيدرك يوماً أن فكرته الوحيدة الملهمة قد تركت — رغم إشراقها — مناطق شاسعة من المشكلة فى الظلام . وإذا كان رجلاً عريض الثراء ، استطاع أن يسند حركة « حكومة الشعب الجديدة » وأن يطبع الكتب والمجلات التى تُنَمِّق فيها فكرته الوحيدة العظيمة أكثر مما توسعّ هذه الفكرة .

ولكن لن أمضى فى الحديث عن هذا الحشد المتنافر الذى يردد اليوم كلمة « الاتحاد » ، فكثير منهم سيكف عن التفكير ويسقط على جانب الطريق ، ولكن كثيراً منهم سيدأب على التفكير ، فإذا دأبوا على التفكير فسوف يصلون إلى إدراك حقائق المسألة إدراكا فيه وضوح أكثر وسيشعرون أن الاتحاد غير كاف .

يكفى ماقلناه عن الجبهة «الاتحادية» فى عهدها الحاضر . إنها إذا اعتبرت أساساً للعمل وهدفاً موضوعاً تبدو غامضة غموضاً لا أمل فى كشفه ، متفائلة إلى حد يدعو إلى اليأس — إن صح هذا التعبير . ولكن لما كانت الفكرة تبدو هى السبيل لتحرير عقول كثيرة من الاعتقاد بغناء عصبة الأمم ، مرتبطة أو غير مرتبطة بالاستعمارية البريطانية ، فقد حق لنا أن نرى كيف يمكن إكمالها وتوجيهها نحو تلك الجماعية البصيرة التى تحيط بالعالم كله ، والتى تدفعنا دراستنا للأحوال القائمة إلى الاعتقاد بأنها هى القسيم الوحيد لانحطاط النوع البشرى انحطاطاً تاماً .

الطراز الجديد من الثورة

لنعد إلى غرضنا الرئيسى ، وهو أن نختبر السبيل لمواجهة هـذه الثورة العالمية التى جاء نذيرها .

إن فكرة الثورة هذه لا تكاد تنفصل فى كثير من العقول عن المتاريس المقامة من أحجار الرصف ، والعربات المقلوبة ، والغوغاء الممزقة التى تسلحت بما صادفته فى طريقها ومضت مستلهمة أناشيد التحدى ، والسجون التى اقتحمت وأخرج منها كل من فيها ، والقصور التى حطمت ، والسيدات والسادة الذين يُصطادون اصطيادا ، والرءوس المرفوعة على الحراب ما تزال جميلة رغم اقتطاعها ، والملوك الذين قتلوا أشنع قتل ، والمقصلة الدائرة ، وهياج شديد ينتهى بنفخة مدفع رشاش ...

كان هذا طرازاً من الثورة يمكن أن نسميه الطراز الكاثوليكى . ومعنى هذا أنه الطور النهائى لعصر من الحياة الكاثوليكية والتعاليم الكاثوليكية . والناس لا يدركون هذا وسينقم بعضهم علينا لأننا نقرره عاريا ، ولكن الحقائق تحملق فى وجوهنا : حقائق معروفة لا سبيل إلى انكارها . لقد كانت هذه الغوغاء الغاضبة الجائعة اليائسة الوحشية نتاج أجيال من الحكم الكاثوليكى والخلق الكاثوليكى والتربية الكاثوليكية .

كان ملك فرنسا « أقرب الملوك إلى المسيحية ، ابن الكنيسة البكر » .
كان سيد حياة المجتمع الاقتصادية والمالية ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تسيطر سيطرة تامة على حياة المجتمع الفكرية وعلى تربية الشعب . وكانت تلك الغوغاء هي النتاج . من العبث أن نردد أن المسيحية لم تجرب قط . لقد جربت المسيحية في أرقى صورها مرة بعد مرة . لقد جربت مدى قرون تجربة شاملة كاملة ، في أسبانيا وفرنسا وايطاليا ؛ وإليها يرجع ما ابتليت به انجلترا في القرون الوسطى من قذارة ومن وباء ومجاعة مزمنين . لقد دعت إلى النقاء ولكنها لم تدع قط إلى النظافة . وكان للمسيحية الكاثوليكية في واقع الأمر السلطان غير المدافع في فرنسا أجيالا عدة . فكان لها أن تعلم كما تشاء وبقدر ما تشاء ، وسيطرت على الحياة العامة سيطرة تامة . ولا يمكن أن يقال إن النظام الكاثوليكي في فرنسا قد حصد شيئا لم يزرعه ، إذ لم يُسمح لغيره بأن يزرع . ولقد كانت تلك الغوغاء المروعة من الأوباش القتلة ، تلك الغوغاء التي ألفناها فيما صُوِّر عن ذلك العصر ، المحصول النهائي للعهد الكاثوليكي .

إن الرجعيين الكاثوليك يدينون أنفسهم بقدر ما يلعنون عامة الشعب الذين قاموا في الثورة الفرنسية الأولى . وأوقح تشويه للحقيقة أن يظهروا التعزز من المقصلة وعربات الاعدام ، كأنما لم تكن منتجات كاثوليكية صميمة ، وكأنها جاءت فجأة من الخارج لتخرب فردوساً وادعا . لقد كانت هذه الأشياء هي المرتبة الأخيرة من الظلم المنظم والجهل في عهد كاثوليكي صرف ،

وكان كل طور يتبع طوراً آخر بمنطق لا هوادة فيه ، وختم المارسليز دائرة حياة الكاثوليكية .

ورأينا أيضاً فى أسبانيا وفى المكسيك سيادة كاثوليكية تعليمية وخلقية غير مدافعة ، رأينا الكنيسة مطلقة اليـد ، تنتج فورة من الحنق الأعمى مماثلة لتلك الصورة . فكانت الجموع هناك أيضاً قاسية مجدّفة ؛ ولكن ليس للكاثوليكية أن تشكو ؛ فالكاثوليكية نحتتهم . لقد أهين القسس والراهبات الذين كانوا معلمى الشعب الأوحدين ، واعتــدى عليهم ، ودنست الكنائس . ويقيناً لو كانت الكنيسة على شىء مما تزعمه لنفسها لأحبها الناس ، ولما كانت أعمالهم دالة على أنهم وجدوا التدنيس راحة وتفريجا عما بنفوسهم .

ولكن هذه الثورات الكاثوليكية ليست إلا نماذج لطراز واحد من الثورة . ولا يلزم أن تكون الثورة عاصفة تلقائية من السخط على صنوف من الإذلال والحرمان لا تحتمل ، بل يمكن أن تتخذ الثورة أشكالا أخرى مختلفة كل الاختلاف .

فهناك غير العصيان المنبعث عن السخط ، والذى انتهت إليه كل تلك العهود من السيادة الكاثوليكية المطلقة ، نوع آخر يعارضه تمام المعارضة ، وهو ما يمكننا أن نسميه « الائتمار بالثورة » ، حيث يشرع عدد من الناس فى تنظيم قوى الازعاج والحنق ، وإرخاء قبضة قوات الحكومة ، حتى يهيئوا تغييراً أساسيا فى النظام . والمثل الأعلى لهذا الطراز هو الثورة البلشفية

فى روسيا ، بشرط أن تبسّط قليلا ويساء فهمها شيئاً ما . فهذه الثورة يراها رعاتها — حين ينزلون بها إلى نظرية فاعلة — تهيئة منظمة لحالة عقلية عامة ملائمة للثورة ، تصاحبها دائرة أضيق من الأعداد «للاستيلاء على السلطان» وقد عمد كثير من الكتاب اليساريين والشيوعيين الأخر — وهم شبان أذكياء ليست لهم تجربة سياسية كبيرة — إلى إطلاق خيالهم فى رسم مثل هذه المخاطرة ، وضموا الثورتين النازية والفاشية إلى مادة درسهم . إن البناء الاجتماعى الحديث ، بما فيه من تركيز قوى الادارة والاستعلام والارغام فى محطات الراديو ومركز التليفون و إدارات الصحف وأقسام البوليس ودور الصناعة وما إليها — هذا البناء الاجتماعى الحديث عرضة لمثل هذا الاستغلال الذى يشبه أعمال العصابات . فهناك جرى واندفاع واحتلال للمراكز الرئيسية ، واستيلاء منظم ، وحبس أو قتل لمن تخشى معارضتهم ، و إذا بالبلاد تواجه «أمراً واقعاً» و يتلو ذلك تجييش السكان الذين يضمرون شيئاً من المعارضة قل أو كثر .

ولكن لا يلزم أن تكون الثورة انفجاراً ولا انقلابا . إن الثورة التى هى الأمل الوحيد أمامنا الآن للتخلص من الفوضى ، إما تخلصا مباشراً أو بعد فترة من الجماعية العالمية ـ هذه الثورة إن كان لنا أن نبلغها فلا بد أن نبلغها بطريقة غير هاتين الطريقتين . فالطريقة الأولى خطابيـة فوضوية مسرفة ، تؤدى فى بساطة إلى بطل واستبداد ، والطريقه الثانية اتمارية مسرفة ، تؤدى بصراع غامض بين شخصيات ممتازة إلى نهاية تشبه تلك

النهاية . وليست إحداهما بالجلاء أو الدقة اللذين يمكنان من الوصول إلى تغيير دائم فى شكل الأحوال الانسانية ومادتها .

وقد يكون ممكنا أو لا يكون أن يوجد طراز من الثورة مختلف عن هذين الطرازين . وليس لأحد أن يقول إن هذا الطراز ممكن إلا إذا جرب ولكن يمكن أن يقال بشىء من الثقة إنه إن لم يتحقق فمستقبل البشرية مدى أجيال عديدة على الأقل مستقبل يدعو إلى اليأس . إن الثورة الجديدة ترمى فى جوهرها إلى تغيير فى الأفكار الموجهة ، وهى طريقة لم تجرب بعد تجربة كاملة .

وهى تعتمد لنجاحها على استطاعتنا أن نجعل عدداً كافياً من العقول يدرك أن الخيار أمامنا الآن ليس خياراً بين الاستمرار فى الثورة و بين المحافظة التى تغلب عليها الرجعية على كل حال ، بل هو خيار بين السير فى شئوننا وتنظيم مجرى التغير فى أحوالنا بحيث تنتج نظاماً عالميا جديدا ، و بين معاناة انهيار اجتماعى تام قد لا يرجى اصلاحه . ولقد كان حجاجنا كله أن الأمور قد وصلت إلى مدى لا يمكن أن تُرَدَّ معه أبداً إلى شىء من الشبه لما كانت عليه . وليس حلمنا أن نبقى حيث نحن بأقل استحالة من تفكيرنا أن نرتد من منتصف الغوص . يجب أن نمضى فى هذه التغيرات الحاضرة إلى نهايتها ، وأن نوفق أنفسنا لها ، وأن نكيف أنفسنا طبقا للغوصة ، و إلا حطمتنا هذه التغيرات . يجب علينا أن نمضى فى هذه التغيرات مثلما يجب علينا أن نمضى فى هـذه الحرب التى

تمخض عنها فكر خاطئ ؛ يجب أن نمضى فيها لأننا لم نجـد بعد نهاية ممكنة لها .

ولن تكون هناك طريقة تمكن من انهائها حتى تتحدد الثورة الجديدة فإذا وقعت الآن بغير إقرار واضح يفهمه العالم كله و يقبله ، فلن ننال سوى شبح السلم . ولن ينقذنا من فظائع الحرب نفسها سلم مرقع الآن ، بل سيؤجل هذه الفظائع لا لشىء إلا ليزيد هولا فى مدى سنوات قليلة . لن تستطيعوا أن تنهوا هذه الحرب بعد ؛ انكم تستطيعون على أحسن تقدير أن تنسئوها .

إن اعادة تنظيم العالم يجب أولا وقبل كل شىء أن تكون عملا « وحركة » أو حزبا أو دينا أو عقيـدة ، أو ما شئت فسمها نستطيع أن ندعوها « حركة الأحرار الجديدة » أو « الراديكالية الجديدة » أو ما شئت بعد . لن تكون منظمة محكمة تسلك الطريق الحزبى وما يليه ، بل ربما تكون قليلة الإحكام متعددة الأوجه ، ولكن إذا استطعنا أن نجمل عدداً كافيا من العقول فى طول العالم وعرضه ، بلا نظر إلى الجنس أو الأصل أو العادات الاقتصادية والاجتماعية ، إذا استطعنا أن نجمل هـذا العدد الكافى من العقول يعترف اعترافا حراً صريحا بأصول المشكلة الانسانية ، فسوف يتبع ذلك اشتراكهم المنتج فى جهد علنى واضح داع لإعادة تشييد المجتمع الإنسانى .

فهم أولا سيبذلون كل ما فى وسعهم لينشروا و يتموا ذلك الفهم لنظام

العالم الجديد ، الذى سيعدونه الإطار العملى الوحيد لنشاطهم ، بينما يعملون ليكتشفوا ، ويشركوا معهم ، فى كل مكان كل من له القدرة العقلية على فهم هذه الأفكار الواسعة نفسها ، والاستعداد الخلق لتحقيقها .

قد يسمى نشر مثل هذه الفكرة الرئيسية دعاية ، ولكنه فى الحقيقة تعليم . ولذا يجب أن يتضمن الدور الافتتاحى من هذا الطراز الجديد من الثورة تعليما محدثا مضاعف القوة فى طول العالم وعرضه ، تعليما سوف تكون نسبته إلى التعليم منذ مائتى عام كنسبة الإضاءة الكهربية فى مدينة معاصرة إلى الشمعدانات ومصابيح الزيت فى ذلك العصر . إن الإنسانية لا تستطيع فى مستوياتها العقلية الحاضرة أن تصنع خيراً مما تصنعه الآن .

وليس بث الحياة فى التعليم ممكنا إلا إذا قام عليه أناس هم أنفسهم يتعلمون . فلا يمكن أن نفصل الفكرة الحديثة فى التعليم عن ربط هذا التعليم بالبحث الدائب . ولا نقول بالعلم فالبحث هو الكلمة الأفضل لأنها مطلقة من كل ما يوحى بالانتهاء الذى يعنى الجمود والموت .

إن كل تربية تجنح إلى الأسلوبية والعقم إذا لم تبق على اتصال وثيق بالتحقيق التجريبى والنشاط العملى ؛ ومن ثم يجب على هذه الحركة الثورية الجديدة المبتكرة أن تواصل فى الوقت نفسه نشاطا واقعيا اجتماعيا وسياسيا وأن تعمل عملا دائباً فى سبيل تجميع الحكومات والحياة الاقتصادية . وان تكون الحركة العقلية إلا الجزء الممهد والرابط فى الدفعة الثورية الجديدة وسوف يكون هذا النشاط الثورى متعدد الأوجه . وعلى كل من يشترك

فيه أن يفكر لنفسه ولا ينتظر الأوامر . ولن يعترف بدكتاتورية سوى دكتاتورية الفهم المستقيم والحقيقة القاهرة .

وإذا كان لهذه الثورة الصاعدة أن تتم ، فيجب أن نرحب باشتراك كل كائن بشرى من أى نوع كان ، على أن تكون له القدرة العقلية على رؤية هذه الحقائق الواسعة فى الموقف العالمى ، والصفة الخلقية لأداء شىء بصدده .

لقد أفسدت السيكولوجية الرديئة دفعات ثورية سابقة ، فأفسحت المجال لإشباع مركبات النقص الناشئة عن الفروق الطبقية . ولا ريب أنه من الظلم البين أن يكون أحد من الناس أحسن تعليما أو أصح جسما أو أقل خوفا من العالم من أى أحد سواه . ولكن ليس هذا سببا لئلا تنتفع الثورة الجديدة أكمل انتفاع بصحة المجدودين وثقافتهم وقوتهم وشجاعتهم إن الثورة التى ننشدها سوف ترمى إلى محو مرارة الحرمان ، ولكنها لن تصنع شيئا لكى تنتقم له . لن تصنع شيئا من هذا على الإطلاق . فليذهب الماضى بمن ذهب .

وإنه لمن شر ما فى التعاليم الماركسية إيحاؤها بأن جميع أهل الثراء والمقدرة الذين يعيشون فى مجتمع تلعب فيه المشروعات الشخصية غير المتناسقة دوراً كبيراً إيحاؤها بأن هؤلاء جميعاً لا بد أن تفسدهم المزايا التى يتمتعون بها ، ويجب أن ينتزع ممتلكاتهم العامل والفلاح ، اللذين يصوران موهو بين فضيلة اجتماعية قادرة على تسيير ذلك الجهاز المعقد كله ، جهاز

المجتمع الحديث . ولكن الحقيقة الواضحة فى المسألة هى التدافع غير المنتظم بين الأفراد والجماعات على السواء يهبط كل من يشترك فيه . كل امرئ ينحط ويفسد : الأفاق الذى يندل على جوانب الطرق ، وفلاح شرق أوربا الذليل الذى يقبل الأيدى ، والعامل المتسكع الذى ترشوه الحكومة بما تقدمه إليه من إعانة ؛ لا فرق بينهم وبين المرأة التى تتزوج طلبا للمال ، وبين مدير الشركه ، ورئيس المصنع ، ومالك الأرض المؤجر ، والمبعوث السياسى عند ما يتلوث الجو الاجتماعى يصاب كل انسان بالمرض .

قد تنتج الثروة والحرية الشخصية والتعليم — وهى تنتج فعلا — متلافين وظلمة ، على أنها قد تفسح المجال لعقول خالقة أو ذات قدرة على الادارة . وإن تاريخ العلم والاختراع قبل القرن التاسع عشر ليؤيد هذا . وعلى الجملة ان كان لنا أن نفترض فى الإنسانية شيئا من الخير ، فأقرب إلى العقل أن نتوقع ظهوره حيث الغرض أعظم .

ومما يدحض الرسم الكاريكاتورى الماركسى للدوافع الانسانية — غير ما سبق — ذلك العدد الضخم من الشبان الذين نشأوا فى بيوت من الطبقة المتوسطة أو العليا ، والذين يبرزون فى الحركة اليسارية المتطرفة فى كل مكان . إنه عندهم رد الفعل النفسى على « الاكتظاظ » والعقم الاجتماعى اللذين يجدونهما فى آبائهم ومعشرهم . إنهم يلتمسون متنفساً لقدراتهم ، تلك القدرات التى ليست قدرات ربح ولكنها قدرات نفع وخدمة . وكثيرون منهم نشدوا حياة شريفة — وغالباً ما وجدوها ،

ووجدوا الموت معها — فى الصراع ضد الكاثوليك ومعاونيهم المراكشيين والفاشيين فى أسبانيا .

وإنه لمن سوء حظ الجيل الذين نشئوا فيه أن كثيرين منهم وقعوا فى حبائل الماركسية الفكرية . ولقد كان من أسخف ما مر على معارضتى لمجتمعات من شبان اكسفورد المترفين . ليس فيهم واحد أضرت بجسمه عشرون سنة من التغذية السيئة والتربية المخملة مثلى ، وكلهم يدعون أنهم خشنون ليس لأقمصتهم بنيقات ، ويثيرهم استبدادى البرجوازى وهدوء سنى المنحدرة ، ينشدون تلك العبارات المضحكة عبارات الحرب الطبقية ، يحفظون بها عقولهم من كل اعتراف بحقائق الحالة . ولئن دل هذا السلوك على أن التعليم الذى تلقوه فى مدارسهم التحضيرية والعامة كان تعليما غير حافز للعقل بحيث ألقاهم مندفعين منفعلين فى مشاكل الحياة الجامعية ؛ إلا أنه لا ينتقص من هذه الحقيقة : وهى أنهم وجدوا فكره أن يهبوا أنفسهم لبناء المجتمع من جديد بناء ثوريا ، بناء يبشر بإنهاء ما فيه من تبذير هائل فى قوى السعادة والرقى ، فكرة شائقة ، وإن بدت امتيازاتهم الخاصة مضمونة إلى حد كبير .

إن هؤلاء الشبان ذوى النزعة اليسارية جديرون حين يواجهون بسوء الحال والازدراء والسنين المضيعة وبتر الأعضاء — والموت ينتهى سريعا ولكن المرء يستيقظ كل يوم على البتر مرة أخرى — الناشئة عن هذه الحرب التى تمخض عنها فكر خاطئ ؛ وإذ يواجهون بارتداد روسيا

إلى الأوتوقراطية ومحو أكثر المزايا التى كانت لأسرهم محواً مالياً حكومياً — إن هؤلاء الشبان جديرون حين يواجهون بكل ذلك أن يعودوا إلى درس امكانياتهم الخاصة درساً جد مفيد ، وليس ذلك فحسب ، بل هم جديرون أيضاً أن يجدوا أنفسهم وقد انضم إليهم فى ذلك الدرس عدد آخر جد كبير من أولئك الذين كان ينفرهم من قبل مافى رمزى المطرقة والمنجل من حماقة وخداع (عمال اكسفورد وفلاحيها !) وما فى الماركسى المقلد من عصبية مثيرة . ولعل هؤلاء الشبان ألا ينتظروا حتى تأخذهم ثورة هائجة يخرجون منها ملطخين شعثا أولى وعى طبقى وعلى خطر دائم من أن يصفوا ؛ لعلهم يقررون — بدلاً من ذلك — أن يقبضوا هم على الثورة قبل أن تقبض الثورة عليهم وأن ينقذوها مما أصابها فى روسيا من عقم والتواء فكرى وخيبة أمل وحرمان .

وهذه الثورة الجديدة التى ننشدها يمكن أن تحدد ببضع كلمات . إنها (ا) اشتراكية عالمية صريحة ، مبنية على أساس علمى وموجهة توجيها علميا . يضاف إليها (ب) إصرار دائب على القانون ، قانون مقام على إعلان جديد أعظم غيرة للحقوق الشخصية للإنسان . يضاف إليهما (ج) أكمل حرية فى القول والنقد والنشر ، وتوسيع دائب للتنظيم التعليمى طبقا لمطالب النظام الجديد المتزايدة . ولقد عجزت الثورة التى يصح أن نسميها الثورة الشرقية ، ثورة الدولية ، عن تحقيق النقطة الأولى من هذه النقاط الثلاث ولم تحاول قط أن تعالج النقطتين الأخريين .

ونقول بأعظم ما يمكن من الإيجاز : إن مثلث الاشتراكية والقانون والمعرفة هو إطار الثورة التى ما زال فى امكانها أن تنقذ العالم .

الاشتراكية ! أنغدوا جماعيين حزمة واحدة ؟ قليـل من الرجال فى الطبقات المحدودة من مجتمعنا القديم المتداعى — قليل من أولئك الذين جاوزوا الخمسين — سوف يستطيعون أن يطمئنوا إلى هذه الفكرة . سوف تبدو لهم دعوة منفرة كل التنفير . (متوسط عمر الوزير البريطانى فى الوقت الحاضر يتجاوز الستين بكثير) . ولكنها لا يلزم أن تبدو منفرة البتة لأبنائهم . سوف يصيبهم الفقر على نحو من الأنحاء . إن النجوم فى مسالكها كفيلة بهذا . وسوف يساعدهم ذلك مساعدة كبيرة على أن يتبينوا أن حياة إدارية منشئة أفضل بكثير من حياة لا تعدو الاستحواذ والإنفاق .

إن الانتقال من الاشراف التنظيمى إلى المشاركة التنظيمية ثم إلى التنظيم المباشر لخطوات يسيرة . و إنها تتخذ الآن فى شأن بعد آخر على كلا شاطىء الأطلنطى . تتخذ قهراً وغالبا بتخفّ كبير وأمام مقاومات قوية ولكنها متضائلة . وقد تصبح بريطانيا — مثل أمريكا — نظاما اشتراكياً بغير ثورة قاطعة ، و بينما هى تنكر طول الوقت أنها تصنع شيئا كهذا .

وليس فى بريطانيا اليوم طبقة مثقفة متميزة . لكن فى السلم الاجتماعى أعلاه وأسفله رجال ونساء قرءوا كثيراً ، وفكروا تفكيرا عميقا فى هـذه المسائل الكبرى التى بحثناها . وقد تجتذب هذه الفكرة عن ثورة تنشىء عالما حراً جماعياً ، قد تجتذب هذه الفكرة عدداً كبيراً منهم ، وربما عدداً

كافيا لبدء ذلك السيل من العزم الذى سيتطور على اليقين من بداية واضحة محددة . إذن نضيق حدود بحثنا إلى ما يجب عمله الآن لإنفاذ الثورة ، ما يجب أن تعمله الحركة أو الحزب — بقدر ما يمكنها أن تتخذ صورة الحزب ، أما السياسة التى ستنتهجها . لقد أوضحنا فيما سبق لماذا يجدر بالرجل العاقل — من أى جنس أو لغة فى أى مكان — أن يصبح ثوريا « غربياً » . وعلينا الآن أن نستعرض وجوه النشاط المباشرة التى يمكنه أن يتجه إليها .

السياسة للرجل العاقل

فلنقرر مرة أخرى النتائج العامة التى أدت بنا إليها مناقشتنا السابقة .
إن إنشاء اشتراكية عالمية متقدمة ، تحفظ فيها حريات كل فرد وصحته وسعادته بقانون عام مبنى على إعلان جديد لحقوق الإنسان ، وتقوم فيها أقصى حرية للفكر والنقد والمشورة — هذا هو الهدف الواضح المعقول أمامنا الآن . وتحقيق هذا الهدف تحقيقاً فعالا هو وحده الذى يستطيع أن يقيم سلماً على الأرض وأن يوقف سير الشئون الإنسانية فى الزمن الحاضر إلى البؤس والدمار . ليس بمقدورنا أن نسرف فى ترديد هذا الهدف ترديداً واضحاً متكرراً ، إن مثاث الاشتراكية والقانون والمعرفة ينبغى أن يمثل الغرض العام للجنس البشرى كله .

على أن اختلالات عصرنا العريضة المتزايدة العمق تفصل بيننا و بين هذا الهدف . إن النظام الجديد لا يمكن أن يبرز إلى الوجود إلا بجهد جبار فيه شىء من التنظيم ، جهد أرصن العناصر البشرية وأقدرها . ولا يمكن أن يتم الأمر بسرعة مسرحية . إن هذا الجهد يجب أن يقدم إطار كل نشاط اجتماعى وسياسى رصين ، ومعياراً عمليا « لجميع الاتحادات الدينية والتعليمية . ولكن بما أن عالمنا متنوع مختلط إلى درجة عظيمة ،

فمن المستحيل أن نضيق حدود هذه الحركة الثورية الجديدة بحيث لا تعدو طبقة واحدة أو منطقة واحدة أو حزباً واحداً . إنها شيء أعظم من ذلك جداً . إنها ستفتتح باتساعها — ولعلها ستطرح أيضاً — عدداً من المنظمات والأحزاب التي تلتقي كلها عند غايتها النهائية . ومن ثم لكي نستعرض النشاط الإجتماعي والسياسي للعقلاء النيرى الفكر اليوم فعلينا أن نعالج ذلك النشاط تفاريق ومن عدة أوجه . إن علينا أن نعالج تقدماً في جبهة طويلة متنوعة .

فلنبدأ إذن بمشكلة مواجهة أساليب عصرنا السياسية مواجهة رصينة ماذا يجب علينا أن نعمل بوصفنا مواطنين ناخبين ؟ إن تاريخ الديمقراطيات المسماه بهـذا الأسم نهائي وحاسم إلى حد كبير في هذه المسألة . فأساليبنا الانتخابية الحاضرة التي لا تترك للمواطن خياراً إلا بين إحدى ناحيتين ، ومن ثم تفرض عليه نظام الحزبين ، هذه الأساليب ليست إلا رسماً كاريكاتورياً للحكومة النيابية . وقد أنتجت على كلا جانبي الأطلنطي أجهزة حزبية كبيرة غبية فاسدة . كان لا بد أن يحدث هذا ومع ذلك فما يزال في عقول الشبان المهتمين بالسياسة شيء من التهيب حين يصل الأمر إلى النظر في التمثيل الطائفي . إنهم يرونه « خيالياً بعض الشيء » . هو على أحسن تقدير مخرج غير مباشر . والسياسيون الحزبيون يجاهدون لابقاء هذا التهيب ، لأنهم يعلمون أن التمثيل الطائفي ، بإدماجه الأصوات كلها في مجموعة ضخمة ، يخرج منها اثنا عشر عضواً أو أكثر ، هو فناء

للاطار الحزبى الخالص ، ودمار للمنظمات الحزبية .

ونظام هذا الجهاز فى الولايات المتحدة أعقد من النظام البريطانى ، وأرسخ أصولا من الناحية الشرعية فى الدستور الأمريكى ، ومن الناحية غير الشرعية فى نظام التكسب بالسياسة . وقد يثبت هذا الجهاز أنه أعسر تحويراً وتجديداً من النظام البريطانى ، المبنى على تقاليد طائفية بالية . ولكن البرلمان والكنجرس كليهما متشابهان تشابهاً جوهرياً فى صفتهما الأساسية إنهما يتجران فى الألقاب والمنح والخير العام ، ولا يسيرهما سوى العنف ، ولا يتابعان حركات الرأى العام إلا عن بعد سحيق . ومن الأمور التى تمكن المشاحة فيها كونهما أعظم استجابة إلى الشعور العام من الدكتاتوريين الذين نشهر بهم دون احتياط ، معتبرين إياهم مناقضين للديمقراطية . إنهما مبديان إهمالا شديداً لاستجابات الكتل الشعبية . وهما أقل من الدكتاتوريات احتفالا بالشرح والإيضاح وأكثر منها تجاوزاً وتغاضياً . فالدكتاتوريون عليهم أن يتكلموا ويتكلموا ، وهم لا يلتزمون الصدق دائماً ولكن لا بد من الكلام . إنك لا تستطيع أن تتخيل دكتاتوراً أبكم .

وفى الأوقات التى يتفاقم فيها الضغط والأزمة كما فى الوقت الحاضر ، يظهر ما فى النظام الحزبى من البطء المحير والعجز والتبذير ظهوراً بينا يدعو إلى تنحية بعض ادعاءات من أسوأ ما يدعيه هذا النظام . وتعلق اللعبة الحزبية ، فتترك المعارضة الانجليزية موقف الدفاع عن مصالح المواطنين

العاديين إزاء أولئك الأوغاد الجالسين على كراسى الحكومة ؛ ويبدأ الجمهوريون والديموقراطيون يتخطون الحد الحزبى ليبحثوا الموقف الجديد . حتى الرجال الذين يحترمون الاحتيال البرلمانى (فى الكنجرس) سوف يتركون هذا الاحتيال إذا أخافتهم أوضاع الأمور خوفا كافياً . ويبدو أن ظهور حكومة قومية مؤلفة من جميع الأحزاب فى بريطانيا العظمى بعد زمن قصير أمر لا محيد عنه . وقد أصبحت بريطانيا العظمى اشتراكية فعلا فى شهرين اثنين ؛ وعلقت السياسة الحزبية أيضاً ، مثلما فعلت الولايات المتحدة تماماً فى أزمة فرط الإنتاج الكبيرة . وحدث هذا فى كلتا الحالين لأن فساد النظام الحزبى وعجزه فاح نتنهما إزاء الخطر المواجه . وإذا كانت الحكومة الحزبية قد رفعت يديها وولت فى كلتا الحالين ، فهل هناك سبب معقول لأن نتركها تعود ثانية بأى مظهر من مظاهر الانتصار أو استعادة القوة ؟ لماذا لا نمضى قدماً من الحالة التى نحن فيها إلى نظام اشتراكى أقل ارتجالا ، تحت إدارة لا حزبية دائمة ، هى فى حقيقتها إن لم تكن فى شكلها حكومة اشتراكية دائمة ؟

وليس لدى هنا ما أشير به فيما يخص أمريكا . فأنا لم أحاول قط مثلا أن أفكر فيما يستتبعه خلو الهيئة التشريعية من الوزراء المنفذين . وأنا أميل إلى اعتبار هذه النقطة من نواحى الضعف فى الدستور الأمريكى ، وإلى الظن بأن التقليد الإنجليزى الذى يعرض الوزير للأسئلة فى المجلس ويجعله المحرك الأول للتشريع الذى يمس قسمه وهو نظام أقل تعقيداً ومن ثم أعظم

ديموقراطية من النظام الأمريكى . ثم إن سلطات الرئيس ومجلس الشيوخ الأمريكيين ووظائفهما تختلف اختلافا كبيراً عن السلطات المركزة التى للوزارة ورئيس الوزارء ، حتى أن الإنجليزى يظل — ولو عكف على دراسة نقط الدستور الأمريكى — فى حيرة من معرفة حقيقته الحية ، كشأنه لو عرضت عليه « نوتة » أوبرا قبل أن يسمعها تعزف ، أو صورة آلة لم يرها قط تدور وقليل من الأوربيين من يفهم تاريخ ودرو ولسون أو مجلس الشيوخ الأمريكى أو عصبة الأمم التى دعا إليها ولسن . هم يظنون أن « أمريكا » التى يتخيلونها فرداً واحداً ضخماً ، قد فرضت هذا النظام على أوربا ثم راغت من مسئوليتها عنه عامدة ؛ ولن يظنوا أبداً سوى هذا . وهم يظنون أن « أمريكا » ظلت بعيدة عن الحرب حتى وصلت إلى الحد الذى لم يعد مقبولا فيه أن تستمر على هذه السياسة ، وأنها استقضتنا أثماناً باهظة للمؤن التى ساعدت على النصر المشترك ، وأظهرت السخط لأن الدين الناشىء عن ذلك لم يسدد . هم يتحدثون على هذا النمط بينما يتحدث الأمريكيون كأن لم يقتل أحد من الانجليز بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ (مات منا فى تلك الفترة ٨٠٠,٠٠٠) حتى تقدم المتطوعون الأمريكيون النبلاء ليموتوا من أجلهم (بلغ عدد هؤلاء الموتى ٥٠,٠٠٠) . أدر على سمعك مثلا عنوان كتاب « كونسى هو إنجلترا تنتظر من كل أمريكى أن يؤدى واجبه » . إنه أحقر عنوان ، ولكن يبدو أن كثيراً من الأمريكيين يحبونه .

وعلى مكتبي بينما أكتب رسالة لسيد يدعى المستر روبرت راندل ، حسنة الطبع والاخراج ، تدعوا إلى حل مشكلة أوربا بهجوم مشترك على الولايات المتحدة فلن تمس بلدان بالاتحاد إلا إذا كان « عدو مشترك » وعدو أوربا المشترك الطبيعى — كما يزعم المؤلف — هو الولايات المتحدة إذن فلكى نبرز إلى الوجود الولايات المتحدة الأوربية يجب أن نبتدىء بنقض مبدأ مونرو . إنى أعتقد بأمانة المستر روبرت راندل وحسن نيته ؛ وأنا واثق من أنه ليس مأجوراً للألمان بطريق مباشر ولا غير مباشر ، سواء هو فى ذلك مع المستر كونسى هو أو المستر هارى إلمر بارنز ؛ ولكن هل بمقدور أذكى رجل فى الدعاية النازية أن يبتكر فكرة أعظم من هذه أثرا أو أكثر تفريقاً ؟...

ولكنى أبتعد عن موضوعى . لست أدرى كيف يشرع عقلاء أمريكا فى أرخاء قبضة الدستور الأمريكى الخانقة ، وكيف ينتزعون الإشراف على أمور بلادهم من أيدى أولئك السياسيين الثقلاء ذوى المكر الرزين ، بأشداقهم التى قواها مضغ « اللبان » والحديث الجمهورى ؛ أولئك السياسيين الذين تضيف صورهم إلى صفحات « التايم » عنصرا من الفزع الحقيقى ؛ وكيف يبطلون نظام التكسب بالسياسة ، ويستكشفون ويعلمون لينشروا خدمة مدنية صالحة ، قادرة على أن تستخلص دعوة التقسيم الجديد ، تلك الوعود التى قامت أمامها العراقيل ، وعلى أن تدفع بأمريكا إلى السير جنباً لجنب مع سائر العالم فى البناء الجديد . ولكنى أرى أن المرح وسلامة

التفكير اللذين ينطوى عليهما الأمريكيون ، قديران على أن يجدا السبيل ويصنعا المستحيل ، ولا أكاد أشك في أنهم سينجحون فى ذلك بطريقة ما ، كما لا أكاد أشك فى نجاح بهلوان الشارع حين أراه على كرسيه الصغير وبساطه ، مربطاً بالسلاسل ، ينتظر حتى تصبح فى قبعته نقود تكافىء الجهد الذى سيبذله !

إن هذه الفروق فى الطريقة والسرعة والتقاليد لشر عظيم على عالم الناطقين بالإنجليزية كله . فنحن الانجليز لانحترم الأمريكيين حق الاحترام ، إذ أننا أميل إلى حسبانهم جميعاً من طراز كونسى هو وهارى إلمو بارنز و بوراه ومن إليهم : مغرورين شكاكين تستبطنهم فكرة واحدة هى عداء البريطانيين ، وعلينا أن نجاملهم بأى ثمن ، وهذا هو السبب فى أننا لا نكون معهم البتة صرحاء وقحاء كما يستحقون . ولكن حبنا لهم يقل بقدر ضبطنا لأنفسنا . فالأخوان الحقيقيان يستطيعان أن يتشاتما و يظلا صديقين . ستكتشف بريطانيا لكولومبيا يوماً ما جانباً من تفكيرها ، ولعل ذلك أن يجلو الجو . قال لى إنجليزى حانق منذ يوم أو نحوه : أسأل الله أن يظلوا بعيدين عن نهاية « هذه الحرب على كل حال » . و إلا فلن يعفونا أبدا من كلامهم ...

على أن شعبينا يسيران بسرعتين مختلفتين نحو غايتين متشابهتين . ومما يرثى له أن يسبب اختلاف اللهجة وطريقة التعبير شراً أكثر مما يسببه اختلاف اللغة .

أما فيما يتعلق ببريطانيا العظمى فالأمور أقرب إلىّ وألصق بى ، ويبدو لى أن هناك فرصة طيبة الآن للامساك بالبلاد وهى فى حالة اشتراكية وتعليق للسياسة الحزبية ، وابقائها على هذا الحال . وهناك نتيجة منطقية — وإن كانت لا يلتفت إليها — لايجاد حكومات قومية لا حزبية وتعليق المعارك الانتخابية ، وتلك هى أنه ما دامت المعارضة غير قائمة فيجب أن يحل محل النقد الحزبى النقد الفردى للوزراء ، وأننا ينبغى أن نعمل على استبعاد الأفراد الفاشلين فى الادارة ، بدلا من أن نستبعد الحكومات . لسنا بحاجة بعد الآن إلى أن نقصر اختيارنا لخدام الشعب على محترفى السياسة . ونستطيع أن نصر على اختيار الرجال الذين عملوا والذين يستطيعون أن يعملوا . ونستطيع أن نؤلف عند كل انتخاب جبهة من الناخبين غير الحزبيين ، يقبلون أن يصوتوا — إن كان ذلك ممكناً — لدخيل عليهم ثبتت كفاءته ، ويصرون على كل حال أن يقدم كل مرشح للبرلمان تقريراً واضحاً عن الخدمة الملموسة التى قدمها للبلاد ، إن كان قد قدم خدمة ما ، وعن صلاته ببيوت المال وعلاقاته العائلية وما يحمله من لقب . ونستطيع أن نقدم هذه التفاصيل الضرورية إلى النشر وأن نعرف الصحف التى تأبى نشرها . وإذا لم يكن هناك رغم ذلك من نصوت له من غير السياسيين ، فإننا نستطيع على الأقل أن نحضر التصويت ونسود تذاكرنا الانتخابية جاعلين هذا نوعاً من الاحتجاج .

ونحن نرى فى الوقت الحاضر كثيراً من المصالح العامة تضطرب شئونها

واحدة بعد أخرى بإشراف أحد الحزبيين العتاق غير الأكفاء . والناس يتساءلون الآن لماذا لا يتولى السير أرثر سولتر شئون الملاحة المتحالفة مرة أخرى ، لا يدير السير جون أور شئون التموين الغذائى ، ولا بأس بأن يساعده فى ذلك السير فردريك كيبل ، ولماذا لا يتولى السير روبرت فانستيارث وزارة الخارجية ؟ نريد أن نعرف الأفراد المسئولين عن عجز وزارتى المخابرات والدعاية ، حتى نستطيع أن نضطرهم إلى اعتزال الحياة العامة . إن من أيسر الأمور الآن أن نثير عدداً من المتحمسين بصيحة « الكفاءة لا الحزبية » .

وقد ضاقت صدور أكثر سكان الجزائر البريطانية بالمستر تشمبرلين وحكومته ، ولكنهم لا يستطيعون أن يواجهوا انشقاقاً سياسياً فى زمن الحرب ، والمستر تشمبرلين متشبث بالحكم تشبث القواقع بالصخر . على أننا إذا لم نهاجم الحكومة كلها ، بل الوزراء منفردين ، وإذا نحيناهم واحداً بعد واحد ، فسوف نصل سريعاً إلى حكومة أعيد إليها الشباب ، حتى أن المستر تشمبرلين نفسه سوف يتحقق من أنه جاوز سن العمل ، وسوف يقبل أن يتركه . ويستطيع عدد جد قليل من ذوى النزعة الاجتماعية أن ينظموا جمعية يقظة وتبقى هذه الأفكار ماثلة أمام كتلة الناخبين ، وتبدأ استبعاد العناصر الخاملة من حياتنا العامة . وستكون هذه المهمة مهمة ذات أهمية عظمى فى تجديدنا السياسى ؛ وسوف تؤدى مباشرة إلى بناء سياسى جديد أعظم إنتاجاً ، تمكن مواصلته بعد أن تنهار الحرب الحاضرة أو تنتهى على نحو آخر .

وتتبع هذه المعركة فى سبيل الانتهاء من لحد النظام الحزبى الذى لم يعد صالحاً للعمل ، ضرورة البحث النشيط عن الكفاءة الادارية والفنية فى طول البلاد وعرضها . إننا لا نريد أن نضيع صبياً واحداً يمكنه أن يكون ذا نفع فى العمل العظيم الذى أمامنا ، فى إنشاء بريطانيا العظمى التى وجهتها مشاكل الحرب عندنا توجيهاً اشتراكياً مضطرباً مضيّعاً ، إنشائها من جديد حتى تكون نظاماً منتجاً على الدوام .

وإننا لمحتاجون فى الهرم التعليمى كله ، من قاعدته إلى قمة الدراسات العليا للمعلمين ورؤساء الادارات ولجان الأبحاث ، إلى إسراع فى التفكير وأساليب التنفيذ لا تستطيع أن تحققه إلا حركة ذات حظ من التنظيم ، يقوم بها رجال أولو نقد بصير . إنا نريد الآن وزراء من الطراز الأول فى كل قسم من الأقسام ، ولكن ليس بين نواحى الحياة العامة جميعاً ناحية أحوج إلى رجل ذى فهم خالق ، وابتكار جسور ، وقدرة إدارية ، من وزارة التعليم .

وقد سارت شئون التعليم فى الإمبراطورية البريطانية سيراً هادئاً غير معجل حتى أن القول بأننا محتاجون إلى جماعة تعليمية تهتدى إلى مثل هذا الوزير وتشد أزره ، هذا القول يبدو مروعا ، وهو على اليقين « سوقية » . إننا نريد وزيراً للتعليم يستطيع أن يهز المعلمين وينبههم إلى امتحان أنفسهم وأن يكهرب الأساتذة الشيوخ ويبعث فيهم حيوية الشباب أو يضعهم فى أبراج عاجية ، وأن يبعث النشاط فى الشبان منهم . لقد ظلت وزارة التعليم

فى النظام الحزبى ركناً هادئاً لمن يستحقه من السياسيين الحزبيين،لسياسى حزبى يحترم مربيته العجوز والموظفين الدائمين احتراماً ذليلا . و بينما تستيقظ الأقسام الأخرى فى أثناء الحرب يزداد القسم التعليمى هموداً . ولا يستطيع المرء أن يتذكر وزيراً بريطانياً واحداً للتعليم ، مذ كان فى تاريخ جزيرتنا وزراء للتعليم ، كان له فى التربية شأن ما ، أو عمل من تلقاء نفسه عملا له أدنى قيمة .

ماذا لو وجدنا مثل ذلك الوزير حياً ، ولو وجدناه سريعاً ، ولو تركناه يبرز ويقفز ؟

هاك شيئاً آخر يجب عمله شيئاً أكثر ثورية من مجرد إلقاء القنابل على رجال البوليس الأبرياء ، وسفك دماء الأمراء أو الأمراء السابقين الذين لم يرتكبوا إثماً . ومع ذلك لا يعدو هذا العمل مطالبة وزارة قائمة بأن تكون عند ما تدعيه لنفسها .

وثم اتجاه ثالث ينبغى أن توجه إليه إنتباهها أى جماعة عاملة ، وهو الحيف والالتواء اللذين فى أساليبنا الحاضرة لانتزاع ملكية الطبقات التى كانت فيما مضى ميسورة الحال . و يبدو أن المبدأ الوحيد الذى تمكن مراعاته هو الأرامل والأطفال أولا . فالاشتراكية تتحقق الآن فى بريطانيا وأمريكا على السواء لا بنزع ملكية صريح (بتعويض أو بغير تعويض) بل بزيادة الاشراف الحكومى وزيادة الضرائب . إن مجتمعينا الكبيرين كليهما يسيران نحو الاشتراكية بظهريهما ولا يلتفتان حولها البتة . وهذا حسن

من حيث تحويل الخبرة الفنية خطوة خطوة من الاستخدام الفردى التام إلى الخدمة العامة . وهنا لا يكاد عمل المواطنين العقلاء الذين يريدون بذل المعونة أن يعدو جعل تلك العملية داعية بنفسها وجعل الجمهور مدركا لحقيقة التغير . ولكن هذه الطريقة سيئة من حيث أنها تحطم الادخار تحطيما غير مميز ، والادخار هو أضعف النقط فى النظام القديم . فالأموال المدخرة تنتزع بالإشراف على الأرباح وبالضرائب على السواء ، وقدرتها الشرائية تتأثر فى الوقت نفسه بتزايد التضخم النقدى تزايداً مطرد السرعة وذلك التضخم الذى هو سبيل التكيف الذى لا معدى عنه ، التماس المفلس لدى مجتمع أسرف فى الانفاق .

إن طبقة حاملى الأسهم تذبل وتموت ، والأرامل واليتامى ، والشيوخ الذين لم يعودوا قادرين على العمل والعجزة الذين لا يستطيعونه ، يتعرضون فى سنيهم المنحدرة لا نكماش مؤلم فى سبل حياتهم ، هناك بلا ريب إنقاص من التبذير الاجتماعى ، ولكن هناك أيضا إفقار غير مباشر للرأى الحر والابتكار العلمى والفنى الحر ، بذبول الجمعيات والمعاهد ودور الخدمة التى لا حصر لها ، تلك التى أغنت حياتنا والتى كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على التبرعات التى يتطوع أصحابها بتقديمها . وكثير من العاملين فى العلم والفن والأدب عندنا فى الوقت الحاضر قد تعلموا من رصيد الأموال الخاصة المدخرة . وهؤلاء الناس الذين لا يستندون إلى أى سند اقتصادى ، والذين هم برغم ذلك صالحون كل الصلاحية للمجتمع يتعرضون عند قيام

ثورة حرب طبقية للانتقام منهم وإذلالهم . وذلك يعد نصراً كبيراً لمن هم دونهم من الجيران . ولكن ثورة يوجهها العقل قد تبتكر نظاماً للمكافآت السنوية والتعويضات ، ولمعونة الجماعات التى كانت فيما مضى جماعات ، بحيث تهون من التقلقل الاجتماعى الناشىء من اختفاء طبقة من الرجال الأحرار المستقلين ، قبل أن تستطيع الطبقة الناشئة التى ستخلفها أى طبقة الموظفين السابقين ومديرى المصالح ومن إليهم ، أن تقف على قدميها وتنمى طرقها الخاصة فى السيطرة والعمل .

إعلان حقوق الإنسان

فلنلتفت الآن إلى حلقة أخرى من المشاكل فى السير بالعالم نحو الجماعية ، وهى حفظ الحرية فى الدولة الاشتراكية ورد تلك الثقة التى يستحيل بدونها عادةً السلوك السليم .

وتحطيم تلك الثقة هو شر من تلك الشرور التى يدركها الناس إدراكا أقل جلاء مما يدركون غيرها من شرور الدور الحاضر من التفكك العالمى . فقد كانت فيما مضى عهودٌ رأينا فيها مجتمعات بأسرها أو على الأقل طبقات كبيرة من المجتمعات تسير فى شئونها الخاصة بأمانة وصراحة وشعور من الشرف الشخصى . فكانوا فخورين بمزايا إنتاجهم ، وعاشوا طيلة أعمارهم على وفاق وتسامح مع جيرانهم . وكانت القوانين التى راعوها مختلفة باختلاف الأقطار والعهود ، ولكن طبيعتها العامة كانت جعل الحياة المنظمة الخاضعة للقانون حياة ممكنة وطبيعية . لقد لُقّنوا واعتقدوا وحق لهم أن يعتقدوا : « أن هذا الشىء (أو ذاك أو سواهما) صواب . أفعل الصواب فلا يمسك شىء إلا أن يكون مصيبة شاذة غريبة . إن القانون يضمن لك ذلك . إفعل الصواب فلا يَسْلبَكَ شىء ولا يهزمَكَ شىء . »

لم يبق فى أى مكان من العالم الآن كثير من هذا الشعور ، وباختفائه

ينحط سلوك الناس إلى تدافع مذعور : إلى الغش ، والخداع ، والمنظمات العصابية ، والتخزين الاحتياطى ، والإخفاء ، وكل تلك السفالة والشعور غير الاجتماعى الذى هو النتاج الطبيعى لعدم الأمن .

وسوف يتحقق لعدد متزايد من العقلاء ، إزاء الفزع الخلق الذى كدنا نبلغه الآن ، أن إعادة الثقة ضرورة عاجلة . وكلما تقدمت الاشتراكية وتركزت السلطة الإدارية ، زادت الحاجة إلى حماية الأفراد حماية فعالة من ضجر الموظفين الحسنى النية أو الضيقى العقول أو القساة القلوب ، بل من كل إساءة فى استعمال النفوذ ، تلك الإساءة التي لا بد أن تقع فى مثل هذه الظروف لجنسنا النزق الشرير .

ولقد نال العالم الأطلنطى فيما مضى نجاحاً ممتازاً فى علاج هذه الناحية من الطبيعة البشرية . وطريقتنا المميزة التقليدية يمكن أن تسمى طريقة الإعلان الأساسى . فقد أبرزت شعوبنا الغربية — بغريزة طيبة فيها — تقريرات للحقوق ، من « الميثاق العظيم » إلى ما بعده ، لتقيم حداً دفاعياً متيناً بين المواطن و بين النمو الضرورى فى السلطة المركزية .

ولسوف يحبط تنظيم الجماعية الشاملة العميقة المفروضة علينا الآن ، سوف يحبط هـذا التنظيم إن لم يصحب بإعلان واق جديد لحقوق الإنسان ، إعلان يجب أن يكون أوسع مدى وأكثر تفصيلا ووضوحاً من كل الاعلانات التى سبقته ، تبعاً للتعقد المتزايد فى البناء الاجتماعى . مثل هذا الإعلان يجب أن يصبح القانون الأساسى العام لـكل المجتمعات

التى يضمها الميثاق العالمى ، وينبغى أن يوصل بأهداف الحرب التى تعلنها القوى المحاربة الآن ، ينبغى أن يصبح الحقيقة الأولى فى كل اتفاق ، ينبغى أن يوضع أمام الدول المحاربة الآن لتقره أو تتوقف فيه أو ترفضه .

ولكى أوضح قصدى من هذا أكمل توضيح ممكن ، دعونى أعرض عليكم مسودة لهذا الإعلان المقترح لحقوق الإنسان ، وأعنى بالإنسان طبعاً كل فرد من النوع الإنسانى ذكراً كان أو أنثى . وقد حاولت أن أضمنه كل شىء جوهرى وأن أحذف منه كل النتائج الثانوية التى يمكن استخراجها من مقرراته العامة . إنه مسودة أعرضها عليكم . ولعل بعض النقط مهملة فيه ولعل فيه تكراراً أو مقررات لا حاجة إليها .

« بما أن الإنسان يأتى إلى هذا العالم عن غير ذنب ارتكبه ، وبما أنه دون ريب وريث مشترك لكل مخلفات الماضى، وبما أن هذه المخلفات تكفى — وزيادة — لتبرير هذه المطالب التى تُطلب له هنا ، فينتج من هذا :

١ — أن لكل إنسان بلا تمييز بين الأجناس أو الألوان أو العقائد أو الآراء ، الحق فى الغذاء والكساء والعناية الطبية والرعايه اللازمة لتحقيق جميع إمكانيات نموه الجسمى والعقلى ، ولإبقائه فى حالة من الصحة منذ ولادته إلى وفاته .

٢ — أن له الحق فى التعليم الكافى لجعله مواطناً نافعاً آبهاً ، وأنه ينبغى أن يُيَسَّر له التعليم الخاص الذى يمنحه تكافؤ الفرص لتنمية مواهبه المتميزة فى خدمة الجنس الإنسانى، وأنه ينبغى أن يمكن طوال حياته من الإطلاع على

شئون المعرفة العامة، ويتمتع بأعظم قسط من حرية النقاش والاجتماع والعبادة.

٣ — أن له أن يزاول أية مهنة مشروعة، ويكافأ عليها بقدر الحاجة إلى عمله، والزيادة التى يضيفها إلى الخير العام. وأن له الحق فى العمل والمكافأة عليه، وحرية الخيار كلما عرضت له أعمال مختلفة. وله أن يقترح عملا لنفسه، وأن يُنظَر فى طلبه فيقبل أو يرفض.

٤ — أن له الحق فى أن يشترى أو يبيع، بلا تفريق أو استثناء، أى شىء يسمح القانون ببيعه أو شرائه، بالكميات والتحفظات التى تتفق مع الصالح العام.

(وهنا أضيف تعليقاً على الهامش. يجب ألا يغرب عن بالنا أن الشراء والبيع للحصول على دخل وربح لن يكونا غير ضروريين فحسب بل مستحيلين أيضاً. وسوف تختفى البورصة بالضرورة بعد أن عاشت نحواً من أربعمائة عام؛ سوف تختفى باختفاء كل دافع معقول نحو التجميع الضخم أو نحو التخزين إتقاء الحرمان والعوز. وقد تكون هناك — قبل عصر الجماعيــة الثامنة بزمن طويل — حماية لما يدخره الأفراد بغية الإستهلاك المؤجل، وذلك بتنمية نظام «الترست» وجعله إدارة عامة. وقد يُجعَل لهم الحق فى نسبة من الفائدة تعوض ذلك التضخم النقدى العالمى، الذى سيستمر فى مجتمع متزايد الثراء. أما التوريث والهبة فى مجتمع جعلت فيه وسائل الإنتاج والاستغلال أياً كان ملكا للمجتمع، فلا تكاد تشمل غير أشياء أقرب إلى الصغر والجمال والمعزة، وهى أشياء تهب السرور لمن ينالها ولكنها لا تهبه امتيازاً إجتماعياً غير عادل.)

٥ — أن له الحق فى حمايته وحماية ممتلكاته الشخصية — التى حصل عليها بطرق مشروعة — حماية بوليسية وقانونية مما قد يراد به من عنف أو حرمان أو قسر أو إرهاب .

٦ — أن له أن يغدو ويروح فى أرجاء العالم حراً على نفقته الخاصة . وأن منزله الخاص أو مسكنه الخاص أو حديقته التى لا تتجاز مساحتها حداً معقولا — تلك هى قلعته التى لا يصح أن يدخلها أحد إلا بإذنه ، ولـكنه يملك الحق فى أن يذهب ويجىء فى أى ريف أو مرج أو جبل أو مزرعة أو حديقة كبيرة أو ما إلى ذلك ، أو على بحار العالم وبحيراته وأنهاره ، حيث لا يكون وجوده ضاراً ببعض المصالح ، ولا خطراً على نفسه ، ولا مسبباً شيئاً من الضيق الحقيقى لمواطنيه .

٧ — إن لم تقض سلطة موثوق بحكمها أن رجلاً من الناس خطر على نفسه وعلى غيره لشذوذ عقلى فيه — وهو حكم يجب أن يؤيد كل عام — فلا يجوز أن يسجن هذا الرجل مدة تزيد عن ستة أيام بغير أن يتهم بمخالفة واضحة للقانون ، ولا عن ثلاثه أشهر بغير محاكمة علنية . فإذا لم يحاكم ولم ينفذ عليه القانون قبل انقضاء هذه الفترة الأخيرة ، فيجب أن يطلق سراحه . كذلك لا يجند فى الجيش أو البوليس أو لأية خدمة أخرى لا تطيب نفسه بالقيام بها .

٨ — أن الإنسان وإن كان خاضعاً لما يوجهه إليه إخوانه من نقد حر ، فسوف يتمتع بحماية كافية من كل ما قد يسوءه أو يسىء إليه ، من

كذب أو سوء عرض للوقائع . وسوف يكون لكل إنسان أن يطلع على جميع السجلات والتقارير الإدارية التى تكتب عنه . لن توجد سجلات سرية فى أى قسم إدارى . سوف تكون جميع السجلات فى متناول الرجل الذى تتعلق به ، وسوف تكون خاضعة للتحقيق والإصلاح إذا أقام هو الدليل على خطئها . ليس السجل إلا مذكرة ، ولا يمكن أن يتخذ دليلا بغير أن يؤيد تأييداً صحيحاً فى محاكمة علنية .

٩ — ألا يفرض على أحد أى نوع من البتر أو التعقيم إلا بموافقته واختياره ، عن محض إرادته ؛ ولا للهجوم الجسمى إلا لرد إعتدائه ؛ ولا للتعذيب أو الضرب أو أى عقاب بدنى آخر . ولا يفرض عليه السجن مع فرط السكون أو الضوضاء ، أو الضوء أو الظلام ، فيسبب له ذلك أذى فى عقله ؛ ولا السجن فى أمكنة موبوءة أو مملوءة بالحشرات أو ضارة بالصحة من أى وجه آخر ؛ ولا أن يوضع فى صحبة أشخاص قذرين أو حاملى عدوى . ولا يطعم قسراً ولا يمنع من الصوم عن الطعام إن كان يريد ذلك . ولا يقهر على أخذ الدواء ولا يعطاه بغير معرفته وموافقته . وأن أقصى العقوبات التى يجوز فرضها عليه هى السجن الصارم فترة لا تتجاوز خمسة عشر عاماً أو الإعدام .

(وهنا أحب أن أشير إلى أن هـذا لا يمنع أى قطر من إلغاء عقوبة الإعدام . كذلك لا أقرر حق كل إنسان فى أن ينتحر ، إذ لا أحد يستطيع أن يعاقب إنساناً على ذلك العمل ، فقد أفلت مُرتكبه .

أما التهديد بالانتحار ومحاولات الانتحار العاجزة فتندرج تحت جنس آخر مختلف كل الإختلاف . فهى أفعال محزنة غير لائقة ، يمكن أن تصبح بسهولة مضايقات إجتماعية خطيرة ، تحق للمواطن العادى الحماية منها) .

١٠ — أن تزداد النصوص والمبادىء المضمنة فى هذا الإعلان بياناً فى قانون للحقوق الإنسانية الأساسية ، يُيَسَّر الحصول عليه لكل إنسان . ولا يضيق من حدود هذا الإعلان ولا يغيّر بأى تعلة كانت . إنه يتضمن جميع الإعلانات السابقة للحقوق الإنسانية . وهو منذ الآن القانون الأساسى لعصر جديد للانسانية فى طول العالم وعرضه .

وكل معاهدة أو قانون يمس هذه الحقوق الأولى لا يقيد أى إنسان أو مقاطعة أو جزء إدارى من المجتمع ، ما لم تعمل تلك المعاهدة أو ذلك القانون علناً بموافقة كل مواطن بالغ يعنيه الأمر ، سواء أكانت هذه الموافقة فعلية أو صامتة ، بأغلبية تصويت مباشر من المجتمع الذى يمسه الأمر ، أو بأغلبية أصوات ممثليه الذين انتخبوا انتخاباً علنياً . ويجب أن يلزم الناس رأى الأغلبية فى شئون السلوك الجماعى . ولا توكل إلى أية هيئة إدارية — بحجة الضرورة العاجلة أو سهولة الاجراء أو ما شاكل ذلك — سلطة تقرير الجرائم أو زيادة تحديد مفهومها ، أو وضع القوانين الفرعية التى تخرق الحقوق والحريات المقررة هنا . يجب أن يكون التشريع كله علنيا ومحدّداً . والمعاهدات السرية لا تقيد الأفراد ولا المنظمات

ولا الجماعات . ولا يجوز إصدار أوامر من مجالس شورية أو ما يشبهها ، لتوسيع تطبيق القانون . ليس هناك مصدر للقانون سوى الشعب . وبما أن الحياة تجرى جرياناً مستمراً إلى مواطنين جدد ، فليس لجيل من الناس أن يسلم القوة التشريعية الطبيعية فى البشر ، كلها أو بعضها .)

هاك شيئاً تستطيع العقول التى تفوقنى ذكاء أن تصقله وتحيل منه إعلاناً ذا أثر ، يبدأ بدءاً منتجاً فيما يحتاج إليه العالم الآن من إعادة الثقة ، وكثير من أجزائه يمكن أن يصاغ فى عبارات أجود ، ولكنى أظنه يشمل ما فى الانسانية عموماً من إرادة الخير ، ويشملها من قطبها إلى قطبها . إنه على اليقين ما نريده نحن جميعاً لأنفسنا . ولعله يصبح أداة عظيمة القدرة حقاً فى الطور الحاضر من الأحوال الانسانية ؛ إنه ضرورى وإنه ممكن القبول . أود أن أقول : ضمّنوه فيما تعقدونه من معاهدات السلم وما تضعونه من مواد الاتحاد ، فيكون لديكم أساس متين لا يزال يزداد قوة ، أساس للحياة العالمية الجريئة فى نظام العالم الجديد . لن تنالوا هذا النظام بغير وثيقة كهذه الوثيقة . إنها المفتاح الناقص لمشاكل معاصرة لا تنتهى .

وإذا لم نكن نحن الديموقراطيات الحاضرة نحارب من أجل هذه الحقوق الانسانية العامة ، فلأى شىء — باسم النبلاء والسادة ، باسم التاج والكنيسة الرسمية ، باسم المدينـــــة ، باسم التيمس ونادى الجيش والأسطول — لأى شىء باسم هؤلاء جميعاً نحارب نحن الرجال العاديين من الشعوب البريطانية ؟

السياسة الدولية

والآن وقد أتممنا صورتنا لما يجدر بالعناصر الإنسانية الأكثر رصانة أن تعمل من أجله وأن تأمل فيه ، وقد أزحنا عن خيالنا أشباح الحرب الطبقية ودولة العبودية الدكتاتورية ، الآن وقد فعلنا ذلك فإننا نستطيع أن نهجم على العقد البارزة فى الصراع الدولى والعلاقات الدولية ، ولدينا بعض الأمل فى حلها جميعاً . فلو تحققنا وأيقنا حتى أعماق نفوسنا أن إقرار العالم على أساس تلك الأفكار الثلاثة : الإشتراكية والقانون والمعرفة ، أليس شيئاً ممكناً ومطلوباً فحسب ، بل هو الطريق الوحيد للنجاة من وهدة الشقاء التى لا تزال تزداد عمقاً — لو أيقنا بذلك لعرفنا أن موقفنا إزاء سخط ألمانيا ، أو إزاء أغراض أمريكا وروسيا ، أو إزاء فقر الهند وجوعها ، أو إزاء مطامح اليابان ، هو موقف انتهازى صريح . لا واحد من هذه الأشياء يعد نتيجة أولى . ونحن العقلاء لا يجب أن يغيب عن نظرنا هدفنا النهائى ، ولـكن طرقنا للوصول إليه يجب أن تتنوع تبعاً لتذبذب الشعور الوطنى والسياسة الوطنية .

وهناك فكرة الاتحاد التى قدمت نقداً لها فى الفصل السابع . ومقترحات شتريت — كما بينت هناك — إما أن تقودك إلى مدى أبعد مما ترمى إليه

أو لا ترسو بك على شىء ما . فلنفترض أننا نستطيع تقوية مقترحاته حتى نجعل اتخاذ نظام اقتصادى اشتراكى والتزام إعلان الحقوق ذاك ، شرطين أساسيين لكل نظام اتحادى ، وعندئذ تصبح مسألة أى المجتمعات يمكن أن يبدأ فيها النظام الاتحادى مسألة مناسبة واتجاه فكرى ملائم . بل إننا نستطيع أن نشجع التجارب الاتحادية الضعيفة التى لا تجرؤ على أن تذهب إلى هذه المرحلة من التعقل ، واثقين أنها إما أن تقود إلى الزوال و إما أن تصبح حقائق حرة تتفق مع ذلك النموذج الذى يجب أن يصير إليه العالم كله فى النهاية . ويمكن أن تقوم وراء كل محاولة خائرة من هذا النوع دعاية تعليمية نشيطة منتجة .

ولكن عند ما يصل البحث إلى مقدار ما نستطيع أن نتوقعه من أى قطر أو مجموعة من الأقطار ، من مساهمة فى تشييد نظام عالمى مطابق للعقل ، و إلى نسبة هذه المساهمة إلى غيره من الأقطار ، أو المجموعات ، فليس بمقدورنا عند ذلك إلا أن نعتمد على الحدس وعلى الأحكام العامة عما يسمى « بالشخصية الوطنية » . فنحن أمام كتل شعبية يمكن أن يتأثر اتجاهها إلى حد كبير بصحيفة بارعة أو بشخصية ممتازة فى قدرتها على الامتناع أو التوجيه ، أو بتغيرات فى تيار الحوادث توشك أن تكون تغيرات عرضية . فأنا مثلا لا أستطيع أن أعين إلى أى حد يمكن أن توافقنا جمهرة المتعلمين الأكفاء فى الأمبراطورية البريطانية الآن على فكرتنا فى قبول الجماعية والعمل لخدمتها ، أو إلى أى درجة من القوة

يمكن أن تصل مقاومتهم ومحافظتهم . فهذا بلدى وأنا حقيق بأن أعرفه خيراً مما أعرف سائر البلدان الأخرى ، ولكنى لا أعرفه معرفة هادئة ولا عميقة بحيث أستطيع أن أقرر ذلك . ولست أدرى كيف يستطيع أى إنسان أن يتنبأ بهذه الإندفاعات والدورات فى استجابات الكتل .

والدعوة إلى حركات عقلية و إدارية كالتى أتكلم عنها هنا ، هى نفسها من بين الأسباب المؤثرة فى التكيف السياسى ، وهؤلاء الذين فى قلب المعمعة هم أعجز الناس عن تقدير كيف تسير المعمعة . إن كل عامل فى الشئون السياسية والدولية هو عامل متذبذب ، ومن ثم فالرجل الحكيم لا يعلق أمله على أى تيار معين أو ارتباط معين . إنه يشجع كل شىء يميل نحو الغاية التى يرمى هو اليها .

وكاتب هذه السطور يميل إلى فكرة أنه قد ينتشر فى جميع أرجاء المجتمعات الناطقة بالإنجليزية إدراك ثقافى عام ، ولا يمكن أن يكون ثَمَّ ضرر من محاولة إعطاء هذا الاتجاه صورة ملموسة . وأعتقد أن حل الأمبراطورية البريطانية يمكن أن يكون فاتحة لتكوين هذا المركب العظيم . وهناك فى فى نفس الوقت عوامل تساعد على توثيق الرابطة بين الولايات المتحدة الأمريكية و بين ما يسمى بالدول الشمالية . وليس هناك مايدعو إلى تعارض هذين الاتجاهين . فبعض الأقطار مثل كندا يتمتع فعلا بضمان مزدوج ، فلديهما ضمانة مبدأ منرو ولديهما حماية الأسطول البريطانى .

وقد تصل ألمانيا التى يبلغ سكانها ثمانين مليونا ، والتى وصلت فعلا إلى جماعية عالمية ، قد تصل إذا أقرت إعلان حقوق الإنسان إلى نظام اشتراكى حر كامل ، أسرع مما تصل بريطانيا العظمى أو فرنسا إلى هذا النظام . وإذا ساهمت فى اتحاد لترقية ما يسمى بأقطار العالم المتأخرة سياسياً ، فقد لا تميل بعدُ إلى مغامرات عسكرية جديدة ، وإلى ضائقة جديدة وبؤس جديد . وقد تدخل فى طور سريع من الانتعاش الاجتماعى والاقتصادى ، فتنبه سائر بلدان العالم وتؤثر فيها . وليس للدول الأخرى أن تملى عليها سياستها الداخلية ، فإذا شاء الشعب الألمانى أن يظل شعباً واحداً متماسكا ، فى دول اتحادية أو دولة واحدة مركزية ، فليس من العدل ولا من الحكمة أن يمنع من ذلك .

إن الألمان — مثلهم فى ذلك مثل سائر العالم — عليهم أن يتدرجوا نحو الجماعية ، وعليهم أن ينتجوا نموذجهم الخاص ، وهم لا يستطيعون أن يكرسوا أنفسهم لهذا العمل إذا قُسِّموا وشتتوا تشتيتاً صناعياً بوحى خطة عتيقة كخطة كى دورساى — إنهم يجب أن يعملوا الشىء الصحيح بطريقتهم الخاصة .

ومن الأخطار التى يجب أن تواجهها الدول الأطلنطية أن التقاليد الحربية قد تستمر فى ألمانيا جيلا أو نحو ذلك . ومن حق العالم أن يصر على اعتراف الشعب الألمانى عامة — لا حكومة ألمانية ما — إعترافاً صريحاً متكرراً بحقوق الإنسان المقررة فى الإعلان . ومن سداد الرأى أن نصر

أيضاً على بقاء ألمانيا منزوعة السلاح ، وعلى أن كل مصنع حربى أو طائرة حربية أو سفينة حربية أو بندقة أو دار صناعة تكتشف فى هذه البلاد يجب أن تدمر فى الحال تدميراً تاماً قاسياً . ولكن هذا شىء لا ينبغى أن يكون مقصوراً على ألمانيا . ينبغى ألا تُفرد ألمانيا بذلك . ينبغى أن يكون التسلح عملا غير قانونى فى كل مكان ، وينبغى أن تشرف قوة دولية من نوع ما ، على أمن عالم ربطت المعاهدات بين أجزائه . إن التسلح الجزئى هو سخافة من تلك السخافات الحبيبة إلى المعتدلين « المعقولين » . إن التسلح نفسه حرب . فصناعة بندقة وتصويب بندقة وإطلاقها ، كل تلك أعمال من نوع واحد . ينبغى أن يمنع القانون صناعة أى جهاز — فى أى جزء من أجزاء الأرض — يقصد منه قتل البشر . إذ من المعقول أن تسأل إذا رأيت بندقة . لقتل من أعدت هذه البندقة ؟

ولقد لقيت ألمانيا تساهلا كبيراً عندما أعادت تسلحها بعد سنة ١٩١٨ ، وذلك لأنها لعبت من ناحية بخوف بريطانيا من روسيا ، ومن ناحية أخرى بخوف روسيا من الهجوم « الرأسمالى » ولكن هذه العلة لا يمكن أن تصلح بعد أداة فى أيدى أية جماعة من مرتزقة الحرب المخادعين من أبناء ألمانيا ، بعد أن عقدت اتفاقها مع موسكو .

إذا أعفيت ألمانيا من الأعباء والقيود الاقتصادية التى عرقلت انتعاشها بعد سنة ١٩١٨ ، فقد تجد مخرجاً كافياً مرضياً لنشاط شبابها فى جماعيتها المنظمة ، فيرتفع مستوى حياتها العامة رفعاً وئيداً مستمراً ، وتسبق روسيا

من حيث كفاءة النظام ، وتضطر « سياسة » العالم الأطلنطى المترثرة وغفلته المشتتة إلى التركز على حقائق الحياة . إن فكرة تمزيق ألمانيا مرة أخرى إلى نثائر غير منسجمة بغية تأجيل انتعاشها النهائى تأجيلا غير محدود ، لهى حلم بليد ليس من الديموقراطية فى شىء . إنه يناقض إعادة إنشاء العالم مناقضة تامة فنحن محتاجون إلى فضائل الشعب الألمانى التى ينفرد بها عن غيره من الشعوب ، وبقدر ما يكون انتعاش ألمانيا سريعاً يكون ذلك خيراً للعالم كله . إنه لمن غير المعقول أن تكبل خطى ألمانيا لا لشىء إلا لكى يتمتع النظام القديم بسنوات قليلة أخرى من العربدة فى انجلترا وفرنسا وأمريكا .

ولعل بقية خوف من الاعتداء العسكرى الألمانى ألا تكون سيئة الأثر على الدول الصغرى فى جنوب شرق أوربا وفى آسيا الصغرى ، فتفل من وطنيتها المسرفة ، وتضطرها إلى العمل بعضها مع بعض . وينبغى أن تكون سياسة الرجل العاقل الترحيب بكل تجربة ممكنة فى التعاون الدولى ، وإذا تضاعفت هذه الاتفاقات وتداخلت حدودها فذلك أفضل . وعليه أن يراقب نشاط وزارة الخارجية فى بلاده بغيرة لا تهن ، متنبها لبوادر ذلك الروح المكيافلى الذى يبذر بذور الانقسام بين الحكومات والشعوب الأجنبية ، والذى يدبر الخطط دائماً لكبح الحركة التقدمية فى الشئون الإنسانية ، بتحويلها إلى « توازن دولى » متأرجح غير حاسم .

إن هذا الكتاب يبحث فى المبادىء الرئيسية لا فى مشاكل التكيف

الخاصة التى لا تنتهى ، والتى ستظهر فى الطريق إلى تحقيق عالمى للوحدة الجماعية . ولهذا أكتفى بالإشارة إلى فكرة نابليون الثالث القديمة ، فكرة الإتحاد اللاتينى ، وإلى إمكان الوصول إلى موقف فى أمريكا الجنوبية الأسبانية البرتغالية يشبه ذلك التداخل بين مبدأ منرو وبين الأوطان الأوربية وهو الموقف القائم فعلا وعملا فى كندا . كذلك لن أطيل القول فى الإمكانيات العديدة التى تنشأ من تطبيق إعلان حقوق الإنسان تطبيقاً صادقاً على الهند وأفريقيا — وبخاصة على تلك الأجزاء من العالم التى أخذت فيها الشعوب السوداء أو شبه السوداء تتيقظ لحقائق التمييز الجنسى والقهر الجنسى .

ولأحذر تحذيراً عابراً من كل معالجة مكيافلية لمشكلة آسيا الشمالية الشرقية وهى معالجة قد يجنح إليها البريطانيون بدافع خوفهم من روسيا . فالجماعية السوفيتية ، وبخاصة إذا تحررت تحرراً سريعاً وزادت كفاءتها بتخلصها من شبح ستالين الذى يسيطر عليها في الوقت الحاضر ، قد تنتشر انتشاراً فعالاً عبر آسيا الوسطى والصين . فأما من تغذى بلبان أفكار المنافسة التى لا تنتهى بين القوى ، من أجل السيطرة الدائمة ، فسيبدو له أن المحالفة مع اليابان — تلك الدولة العسكرية المتبربرة — هو الرد الطبيعى الذى لا يماثله رد . وأما من عرف حقيقة الموقف الحاضر للإنسانية ، والحاجة العاجلة إلى جماعية عالمية ، فسيرى أن هذا التوحيد الواسع النطاق أمر جدير بالترحاب والنقد والتعضيد .

وقد يساعد الرعب القديم من « أطماع روسـيا فى الهند » على تسوية الموقف الأسيوى فى أنظار كثير من الناس . على أن مائة عام من الإهمال والاستغلال ، والاندفاعات الوقتية نحو المعونة الحقيقية : مائة عام من هذه الأشياء الثلاثة مجتمعة كفيلة بأن تعلم البر بطانيين أن المصير الأخير لمئات الملايين من الجنود لا يرتكن الآن على حاكم فاتح أيا كان ذلك الحاكم ، بل يرتكن ارتكانا تاماً على مقدرة الشعوب الهندية على أن تعاون وتشارك فى جماعية عالمية . وقد يتعلم الهنود كثيراً بالاكتساب والقدوة من روسيا أو من عالم الناطقين بالإنجليزية ، ولـكن أيام العصيان المجرد أو الاسترواح لتبدل السادة قد انقضت . إن الهند يجب أن تجد لنفسها ، وبعقولها الممتازة الـكثيرة ، مخرجاً من الفوضى ، وطريقاً خاصاً بها للمشاركة فى صراع من أجل نظام عالمى ، متخذة الراجا البريطانى نقطة للبدء . ولا تستطيع قوة خارجية أن تحقق ذلك للشعوب الهندية ، ولا أن تجبرها على عمله إن كانت راغبة عنه .

ولـكنى لن أُلِمّ بعد بهذه المشكلات والإمكانيات الدائمة التغيير ، فهى احتمالات وفرص « على جانب الطريق » إن صح هذا التعبير . ومهما كان بعضها عظيماً فهو ثانوى برغم ذلك . يجب الآن أن يعاد تخطيط القنوات السياسية المتغيرة مرة كل عام أو نحو ذلك . ويكون نشاط الرجل العاقل واستجاباته فى أى قطر من الأقطار وفى أى عصر من العصور محكومة بتلك الفـكرة المهيمنة : حركة الـكون نحو نظام عالمى واحد .

يجب أن تكون هذه الفكرة هى الهدف الدائم الذى تتجه اليه حياته السياسية كلها .

على أن هناك وجهاً آخر من التكتل العالمى يجب أن نشير إليه قبل أن نختم هذا الفصل ، وهو ما يمكن أن نسميه النظم الدولية « الخاصة » . وقد جلى ليونارد ولف . لفكرة الجوهرية فى ذلك العمل الدولى الجانبى فى كتابه « الحكومة الدولية » ، وهو كتاب مأثور نشر فى سنة ١٩١٦ وما يزال مفيداً لمن يقرؤه .

والمثال النموذجى للمنظمات «الخاصة» هو اتحاد البريد، الذى كان دافيد لوبين ، ذلك المفكر المنسى ، يريد أن يوسع حدوده حتى يشرف على الملاحة ويسوى الحمولات فى جميع أنحاء العالم . وقد بنى لوبين آراءه على خبرته العملية بأعمال البريد ، وهى التى جنى منها ثروته الطائلة . وانتقل من مشكلة تنظيم الحمولة إلى فكرة الاشراف على الانتاج العالمى أسبوعاً أسبوعاً وشهراً شهراً . حتى إذا حدث نقص هنا أو فائض هناك أمكن السبق إلى معرفته وعلاجه فى وقته . وقد حقق هذه الفكرة فى المؤسسة الدولية للزراعة بروما ، التى كانت فى أوج مجدها تعقد المعاهدات كأنها دولة مستقلة ، بشأن ما تستبدله من كل حكومة من حكومات الأرض . وقد أوقف نشوب الحرب فى سنة ١٩١٤ وموت لوبين فى سنة ١٩١٩ تطور هذه التجربة الرائعة الملهمة فى الدولية « الخاصة » . إن تاريخ هذه المنظمة ينبغى أن يعد جزءاً من الدراسة الاجبارية على كل رجل من

رجال الدولة وعلى كل عالم بالقانون الدولى . على أنى لم ألق فى حياتى قط سياسياً محترفاً يعلم عنه شيئاً ما أو يريد أن يعلم عنه شيئاً ما . إنه لا يكسبه أصواتاً ، ويبدو من الصعب أن تفرض عليه ضريبة ، فما فائدته ؟

ومن المنظمات الخاصة الأخرى والتى يمكن توسيع وظائفها توسيعاً عظيماً جماعة المجلس البحرى[١] ، التى تشرف على المنائر وتخطيط البحار فى طول العالم وعرضه . ولكننا محتاجون إلى مراجعة طويلة وتوسيع عظيم لكتاب المستر ولف ، حتى نتتبع قصة الشبكات الدولية « الخاصة » التى تختلف من المنظمات العلمية والفنية ، ومقاومة تجارة الرقيق الأبيض ، والتعاون البوليسى الدولى ، إلى الجمعيات الصحية والإرساليات الدينية . وليس هنا مجال تتبع هذه الأشياء كلها ، وإن كانت ضرورات الحرب قد أخرت تطورها أو عكست هذا التطور فى بعض الأحيان . وكما أشرت إلى أن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى قد تصبحان عن غير وعى منهما دولتين اشتراكيتين ، فكذلك ليس حلماً مستحيلا على الإطلاق أن يجد العالم نفسه فجأة وقد امحت فيه الفروق بين الأجناس فعلا ، باتساع هذه المنظمات التعاونية «الخاصة» وتشابكها . وعلى أية حال فهذا التطور الجانبى يساير لدينا الخطط السياسية التى سبق أن ناقشناها ، وهي خطط أكثر تحديداً .

---

(١) The Elder Brethren of Trinity House

إن المرء إذ يعرض إمكانيات هذه المحاولات المختلفة لإقحام العقبات التى تقوم بيننا و بين نظام عالمى جديد أبعث على الأمل ، ليتبين دواعى الأمل فى تلك الإمكانيات العظيمة ليتبين سخافة عدم الإسراف فى الثقة . إننا جميعاً أشبه بجنود فى ساحة قتال فسيحة ، قد يستخفنا الفرح بينما تكاد تنزل بنا النازلة ، وقد نكون على شفا اليأس ونحن لا نعلم أن خصومنا يهنون . أما استجاباتى أنا فتتراوح بين إيمان كإيمان المتصوفة فى انتصار العقل والخير الانسانيين آخر الأمر ، و بين أحوال من التصميم الروائى على الصدق والصبر حتى النهاية ، تجاه شىء يبدو كأنه كارثة محتومة . إن هناك عوامل كمية ليست لدينا إحصاءات تساعد على تقريرها . وهناك عوامل من الزمن والفرص لا يمكن حسبانها . وكل ناحية من نواحى النشاط التى سبق لنا رسمها تساعد على تأخير الانزلاق نحو الدمار ، وتمنح نقطة ارتكاز للقيام لهجوم مضاد على العدو .

وقد حاولت فى الكتاب السابق لهذا « مصير الانسان » أن أقرر أن النوع الإنسانى لا يحق له الاعتقاد بأن فى استطاعته الإفلات من الهزيمة والفناء ، أكثر من أى كائن آخر يلعب دوراً على مسرح الحياة ، أو لعب هذا الدور . وحاولت أن أبين ما فى موقفنا الحاضر من خطورة بالغة ، وما ينبغى لنا أن نبذله من جهد شديد عاجل لإصلاح أمورنا الآن . وكانت هذه الدعوة تبدو — إلى عهد قريب — دعاء لعالم أصم أعمى ، لا يتزحزح عن طرقه المألوفة حتى ولو وضح أنها تؤدى إلى الدمار .

فساءلت نفسى هل يدل هذا الميل إلى التشاؤم على حالة أو طور من أطوارى واتهمت نفسى ؛ ولـكننى – بينى و بين نفسى – لم أجد سبباً قوياً يدفعنى إلى الاعتقاد بأن سنبذل يوماً ما ذلك الجهد العقلى اللازم لـكى ينجو الإنسان من القضاء الذى يوشك أن يحل به .

وإذا بالمرء يلاقى الآن فى كل مكان عقولا فزعة منفتحة متسائلة . ولقد كانت التغيرات التى طرأت فى الحرب الحاضرة نافعة حتى الآن فى تشتيت أوهام الأمن التى كانت تبدو منذ عام واحد أوهاماً لا تغلب . ما توقعت قط أن أعيش حتى أرى العالم مفتح العينين كما هو الآن . لم يكن العالم قط متيقظاً كما هو الآن . وقد يكون ذلك ضئيل الأثر ، وقد يكون عظيم الأثر . نحن لا ندرى . وليست الحياة بشىء لو كنا ندرى .

نظام العالم فى سبيل التكوين

لن يكون هناك إذن يوم مذكور يظهر فيه نظام العالم الجديد إلى الوجود . بل سوف يتم ذلك خطوة خطوة هنا وهناك ، حتى عند ما يظهر ذلك النظام الجديد فى الوجود سوف يأخذ فى اتجاهات جديدة متطورة ، ويستكشف مشاكل غير متوقعة ، ويمضى إلى مغامرات جديدة . ولن يفرد رجل أو جماعة من الناس بالذكر على أنه أبو ذلك النظام أو مؤسسه فلن يكون صانعه هو هذا الرجل أو ذاك الرجل أو أى رجل سوى « الانسان » ، ذلك الكائن الذى ينطوى كل واحد منا على نصيب منه . سوف يكون نظام العالم مثل العلم أو مثل أكثر الاختراعات نتاجا اجتماعياً ، وسوف يتحقق بجهود أفراد لا يحصى عددهم ، أشخاص سموا فى حياتهم ووضعوا خير ما لديهم فى ذلك العمل الجماعى .

ونستطيع أن نجد فى تاريخ الطيران نموذجاً مصغراً للتطور المنتظر فى النظام العالمى الجديد . فمنذ أقل من ثلث قرن كان تسعة وتسعون فى المائة من الناس يخبرونك أن الطيران مستحيل . هم يستطيعون أن يتصوروا طائرات الورق والمناطيد بل المنطاد الشراعى أيضاً ، فقد عرفوا أشياء كهذه منذ مائة عام . أما جهاز أثقل من الهواء ، يطير برغم الريح والجاذبية .

أما هذا فكانوا « يعلمون » أنه هراء . كان الراغب فى دراسة الطيران المخترع هو نموذج الهزأة ، فكل أحمق يستطيع أن يسخر منه . والآن أنظر كيف تم غزو الهواء .

ومن فعل ذلك ؟ لا أحد وكل أحد . عشرون ألف عقل أو ما يقرب من ذلك ، كل منها يزيد فكرة أو ابتكاراً أو يكمل ناقصاً ، يحمس بعضها بعضاً ويقتبس بعضها من بعض . كانوا أشبه بخلايا عصبية فى مخ ضخم ، ترسل ردودها هنا وهناك . كانوا أناساً مختلفين كل الاختلاف فى الجنس واللون وإنك لتستطيع أن تكتب أسماء مائة من الناس ممن برزوا فى عالم الجو ، فإذا بحثت عن الدور الذى لعبوه وجدت أكثرهم ذوى شهرة طنانة من طراز لندبرج ، وضعوا أنفسهم بتواضع ولكن بثبات فى مجال الشهرة المشرق ، دون أن يستطيعوا ادعاء شىء من المشاركة المنتجة أيا كان . وسوف تجد كثيرا من الجدل فى الأرقام القياسية وفى السبق إلى هذه الخطوة أو تلك ، أما سبل الاقتراح والتفكير ، أما نمو الفكرة وتحسينها ، فقد كان سلسلة لا يمكن تتبعها على الاطلاق . وقد ظلت هذه السلسلة تتتابع حلقاتها أمام أعيننا مدة لا تزيد عن ثلث قرن ، ولكن لا أحد يستطيع أن يقول كيف تم الأمر . قال واحد : لم لا يكون هذا ؟ وحاوله ، فقال آخر : ولم لا يكون ذاك ؟ كانت هناك فكرة واحدة مشتركة بين صنوف شتى من الناس . فكرة سحيقة القدم عن عهد ديدالوس ، فكرة أن « الإنسان يستطيع الطيران » . وإذ بالفكرة « تهبط إلى الواقع

مسرعة » — هذه هى العبارة الوحيدة المستطاعة — و إذا بالطيران ممكن. ووجه الإنسان — الانسان ككائن اجتماعى — فكره إلى هذه الغاية، وجد فى السعى، وطار.

وكذلك سوف يكون الشأن — على اليقين — فى النظام العالمى الجديد، إن تحقق ذلك النظام يوماً. فالفكرة « تهبط إلى الواقع »، وصنوف شتى من الناس تقول إن « السلم العالمى ممكن ». سلم عالمى يكون الناس فيه متحدين أحرارا مبدعين. ولا عبرة بأن أكثر الرجال الذين بلغوا الخمسين أو أربوا عليها يتقبلون الفكرة بيسمة إشفاق. إن أهم الأخطار التى تقف فى سبيل هذه الفكرة هى الدجماطيقية و « الزعيم المنتظر » الذى سيحاول أن يكبح كل اتجاه فى العمل مواز لاتجاهه و إن لم يكن خاضعاً لسيطرته. يجب أن تكون هذه الحركة متعددة الرؤوس، ويجب أن تظل كذلك. ولنفرض أن العالم قرر من قبل أن سانتوس ريمونت أو هيرام مكسيم هوسيد الجو الذى بعثته العناية الإلهية، ثم منحه الحق فى اختيار خليفة له، واخضع كل التجارب لإشرافه الملهم. لو فعل العالم ذلك لكان من المحتمل أن ترى الآن سيد الجو ومن خلفه حاشيته من الإمعات، يتبعون ببصرهم — ونفوسهم مفعمة فخارا ورضى — جهازا غير متقن ولا نافع بل شديد الخطورة، يعبر الريف طالعاً.

غير أنى لا أعدو الدقة حين أقول إن هذه هى الطريقة التى نعالج بها مشكلاتنا السياسية والاجتماعية.

وإذا راعينا هذه الحقيقة الجوهرية وهى أن السلام الإنسانى لا يمكن أن يتحقق — إن تحقق على الإطلاق — إلا بتقدم على جبهة طويلة متشعبة ، بسرعة متفاوته ، وبأهبة غير متعادلة ، لا يحدد اتجاهنا فيه إلا إيمان عام بالحاجة المثلثة إلى الجماعية والقانون والبحث ... إذا راعينا هذه الحقيقة أدركنا استحالة رسم أية صورة للنظام الجديد كما لو كان نظاماً مقرراً ثابتاً ، مثلما كان النظام القديم يظن نفسه . سوف يكون النظام الجديد نظاماً متصلا ، فلن تكف الأشياء عن الحدوث ، ومن ثم فالنظام الجديد يتحدى كل وصف مثالى . على اننا نستطيع مع ذلك أن نجمع طائفة من الإمكانيات التى سيصبح تحقيقها متيسراً وسيزداد يسراً كلما انحسر موج التفكك وانكشف النظام الجديد .

فعلينا أولا أن نتبين بعض الخصائص المعينة فى السلوك الإنسانى ، وهى خصائص مهملة كل الإهمال فى التفكير السياسى العام . وقد بحثنا الدور العظيم الأهمية الذى يمكن أن يلعبه فى مشاكلنا المعاصرة تقرير واضح لحقوق الإنسان ، ورسمنا خطة لمثل هذا التقرير ولا أظن أن فى هذا التقرير نقطة واحدة لا يعتبرها كل إنسان مطلباً عادلا ، ما دامت تعنيه هو . فهو على أتم استعداد لأن يؤيدها بهذا الروح . ولكن حين تطلب منه أن يؤيده — لا كشىء يقره فى الوقت نفسه لكل شخص فى العالم فحسب ، بل كشىء يجب عليه أن يبذل له كل تضحية لازمة لتحقيقه العملى — إذا طلبت منه ذلك وجد من نفسه نفوراً عن « المضى إلى هذا الحد » .

ليجدن مقاومة خطيرة تنبع من شعوره الباطنى ، وتحاول أن تبرر نفسها فى أفكاره .

سيقول لك أشياء مختلفة ، ولكن كلمة «غير ناضج» سوف تلعب دورا كبيراً فيما يقول . سوف يظهر حنواً كبيراً ورعاية عظيمة لم تكن تتوقعهما منه قط — للخدم والعمال والأجانب ، و بخاصة أولئك الأجانب الذين يختلفون عنه فى اللون . سوف يؤذون أنفسهم بهذه الحرية الخطرة . سيقول لك : «أهم صالحون لكل هذه الحرية ؟ أخبرنى صراحة : أهم صالحون لها ؟ » وسوف يتأذى منك قليلا إذا قلت له : « صالحون كصلاحيتك لها » . وسيقول بنبرة فيها شىء من السرور : « ولكن كيف تستطيع أن تقول ذلك ؟ » ثم ينفض يده من الحديث قائلا : « أراك تنظر إلى البشرية نظرة مثالية . »

فإذا ألححت عليه وجدت هذا العطف يتبخر من مقاومته تبخراً تاماً . فهو الآن معنى بجمال العالم ورقته عامة . فسيحتج بأن هذا الميثاق العظيم الجديد سيرد العالم كله « متشابهاً مستوياً جامداً » وستسأله لماذا يجب أن يكون عالم الرجال الأحرار عالماً متشابهاً مستوياً جامداً ، ولن يستطيع أن يجيبك جواباً معقولا . إنها دعوى عظيمة الأهمية لديه ، فهو مضطر إلى أن يتعلق بها . فقد تعود أن يربط بين « حر » و « مساو » ولم يواته قط الذكاء الكافى لأن يفصل بين الكلمتين وينظر إلى كل منهما على حدة . وهو قمين عندئذ أن يلجأ إلى إنجيل النبيل العاجز ، كتاب ألدوس

هكسلى « عالم جديد جرىء » ويتوسل إليك أن تقرأه . فتنحى ذلك الحلم الثقيل وتزيد عليه إلحاحاً . فيقول إنه الطبيعة لم تساو بين الناس ، وتجيبه أن هذا لا يدعونا إلى تجسيم هذه الحقيقة ، فعلى قدر تباين درجات الناس واختلاف مواهبهم ، يلزم لهم ميثاق عظيم يحمى بعضهم من بعض ثم يتحدث عن سلب الحياة جمالها ورومنتيتها فتجد بعض الصعوبة فى فهم مدلول هاتين الكلمتين عنده . ويتضح بعد قليل أو كثير أنه يجد التفكير فى عالم « يستوى فيه الخادم وسيده » تفكيراً بغيضاً كل البغض .

فإذا سبرت غوره بالأسئلة والإشارات الموجهة ، بدأت تتبين عظم الدور الذى تلعبه « الحاجة إلى السمو على الأقران » فى تكوينه (ولا تنس أنك ستلاحظ عرضا سرورك الخفى بالفوز عليه فى المناقشة) . فإذا قرنت هذا المثال الذى ندرسه بسلوك الأطفال ، وبسلوكك وسلوك من حولك من الناس ، وضح لك مبلغ حاجتهم الملحة إلى الشعور بالنصر ، إلى الشعور بأنهم خير من أقرانهم وأحسن عملا ، وبأن بعض الناس يشعرون بذلك ويعترفون به . إنه دافع أعمق وأمضى من الشهوه الجنسية . إنه جوع . إنه مفتاح لكثير مما يشوب الحياة الجنسية من انعدام الحب ، مفتاح للدوافع الوحشية ، وللبخل ، والتخزين ، والغش الكثير الذى لا يدر نفعاً ، والخداع الذى يهب الناس شعوراً بأنهم غلبوا شخصاً من الأشخاص ، وإن لم يتقدموا عليه .

وهذه هى العلة الأصيلة لحاجتنا إلى القانون ، ولسعى الميثاق العظيم

وجميع الوثائق المشابهة له إلى قهر الطبيعة الإنسانية دفاعاً عن سعادة الجميع . فالقانون فى جوهره تكييف لهذه الرغبة الملحة فى السمو فوق الكائنات الحية الأخرى جميعا — تكييف لهذه الرغبة وفق حاجات الحياة الاجتماعية، وهو فى مجتمع جماعى ألزم منه فى أى مجتمع آخر. إنه صفقة. إنه عقد اجتماعى، مؤداه أن نعامل الناس بمثل ما نحب أن نعامل به ، وأن نكبح أنانيتنا المسرفة ليفعل غيرنا مثل ذلك . و إذا واجهنا هذه الاعتبارات التى قدمناها فيما سبق عن حقيقة الحيوان الذى نعامله ، وضح لنا أن سياسة الرجل العاقل كما رتبناها يجب أن تنطوى على توقع معارضة جادة لهذه الأداة الأولية الحيوية لتحقيق نظام العالم الجديد .

وقد أسلفت الإشارة إلى إمكان تحويل المناقشة الجارية الآن عن « أغراض الحرب » تحويلا منتجاً إلى رعايته لهذا الإعلان الجديد لحقوق الإنسان . ويجب أن تراقب معارضته هذا الاعلان ، والمحاولات التى ستبذل لتأجيله و إضعافه و إخماده وتجنبه ، وأن يشهر بها وأن تحارب حرباً متصلة فى العالم كله . ولست أدرى إلى أى حد يتقبل الكاثوليكى الصادق هذا الإعلان الذى أسلف تخطيطه ، ولكن الفلسفة العصبية الكاذبة تصر على التفرقة فى المعاملة بين « الآريين » و « غير الآريين » وتعد ذلك عملا مجيداً . أما موقف الشيوعيين من بنود هذا الإعلان فيتوقف — على ما أظن — على الأوامر التى سوف يتلقونها من موسكو. ولكن الديمقراطيات أو الدول المسماة بهذا الاسم تختلف فى ظاهر الأمر

عمن أسلفنا ذكرهم . وقد يكون ممكناً الآن جعل ذلك الإعلان معياراً لأمانة الزعماء والحكام وشجاعتهم ، أولئك الزعماء والحكام الذين أولتهم هذه الديموقراطيات ثقتها . فبهذا الإعلان يمكننا أن نختبر هؤلاء الحكام اختباراً فيه من الدقة ما لا يمكن الوصول إليه عن أى طريق آخر .

ولكن النماذج البشرية والشخصيات البارزة والهيئات ذوات النفوذ والموظفين والأفراد المختالين المعتدين — كل أولئك الذين سيخذلون عن ذلك الإعلان ويجادلون فيه ويتحدونه ، لا يمثلون كل ما ستوجهه طبائعنا الخبيثة من مقاومة لهذه الأداة التى ترمى إلى تدعيم أبسط مبادىء العدل فى العالم . فسوف يوجد فى ثنايا الديمقراطيات أناس أكثر من هؤلاء عدداً ، يؤمنون بالإعلان بأفواههم ثم يأخذون فى البحث عن طريقة لخيانة ذلك القانون والعبث به عبثاً غير ظاهر ، تدفعهم إلى ذلك شهوتهم إلى الشعور بالسيطرة والامتياز ، تلك الشهوة التى تكاد تنزل من إراداتنا الفردية منزلة اللباب . ولعلهم لايسمحون لأنفسهم إلا « بقليل من العبث » بهذا الإعلان . وإنى لميال إلى الظن بأن هذا الخداع نقيصة عامة . فأنا أتوق حقاً إلى خدمة العالم ، ولكنى أميل ميلا شديداً إلى أن أنال على خدمتى فوق ما أستحقه من مكافأة أو احترام أو ما إليهما . أنا لا آمن نفسى . أنا أريد أن تسودنى قوانين عادلة . إنا نريد القانون لأننا جميعاً ميالون بطبعنا إلى الاعتداء على القانون .

هذا استطراد طويل فى علم النفس . ولن أزيد على نظرة عابرة إلى

عظم الدور الذى تلعبه شهوة العلو والسيادة هذه فى التجارب الجنسية للإنسان . فنى هذه التجارب نجد الوسيلة ميسرة للتنفيس المطلق عن هذا التوتر المنبعث عن حب النفس ، بالتزيد والتفاخر . ولكن الذى دفعنى إلى هذا الاستطراد هنا هو هذه الحقيقة : أعنى أن تعميم « أغراض الحرب » التى نتحدث عنها حتى تصير إعلاناً للحقوق ، هذا التعميم لن ينفى المعارضة الصريحة أو الباطنة ، ولا إمكانيات الغدر والخيانة التى لا نهاية لها ، وإن بسّط نتيجة الحرب تبسيطاً عظيما .

كذلك لا ينفى هذا التعميم أنه قد يقع كثير من التأجيل والفشل قبل أن نصل إلى ديموقراطية اشتراكية عالمية منتجة نافعة ، مع أن اتجاه الصراع يبدو وكأنه ينحرف انحرافاً بيناً نحو هذا النظام . فأناس لا يحصى عددهم ، من المهراجات إلى أصحاب الملايين ، ومن السادة المستعمرين إلى السيدات الحسان ، سيبغضون النظام العالمى الجديد ، وسيبتئسون لكبح شهواتهم وأطماعهم بظهوره ، وسيموتون وهم يحتجون عليه . فعند ما نحاول أن نقدر ما سيجلبه لنا هذا الإعلان يجب ألا ننسى ضجر جيل أو نحوه من المتذمرين ، وكثير منهم ذوو شهامة حقة وظاهر جميل .

وليس يسيراً أن نهوّن من شأن الكفاءة التى ستفقد إن تحويل العمل الإدارى بروحه وكبريائه ، من رجل مستثمر ذى راتب ضخم ، متباه بكثرة الإنفاق ، وله زوجة طموح إلى مكانة اجتماعية ممتازة ، إلى رجل أقل راتباً ، وأكثر نقداً لنفسه ، يعلم أنه يكتسب احترام الناس بما يهبه

لعمله ، أكثر مما يكسب احترامهم بما يناله منه . سيحدث إبان عصر الانتقال تضييع كبير للقوى الاجتماعية ، وأمور كثيرة تضحك وتبكى ، وفقدان كثير للكفاءة . ويجب أن نكون على استعداد لذلك .

ولكننا بعد أن نسلم بحدوث هذه الأزمات العارضة ، نستطيع أن نتطلع بشىء من الثقة إلى أطوار معينة فى مستهل النظام العالمى . ستكون الحرب أو مخافة الحرب قد أدت فى كل مكان إلى تركيز أعداد ضخمة من العمال فى صناعة الذخيرة وإقامة المنشآت الهجومية والدفاعية من كل نوع ، فى بناء السفن ، ومد خطوط المواصلات الداخلية ، وإنتاج الأعواض الصناعية ، وبناء الاستحكامات . ستكون هناك زيادة عظيمة وسيطرة عظيمة على المادة وعلى الصناعة الآلية المنشئة ، كما ستكون هناك زيادة عظيمة فى القدرة على استخدام المادة أو إدارة الآلة . وعندما يتوارى احتمال الوصول إلى نصر نهائى ، وتمر هذه الحرب المهوشة من طورها العسكرى البين إلى طور الثورة ، وعندما يجتمع مؤتمر للصلح ، عند ذلك سيكون من الأمور اللازمة — لا المرغوب فيها وحسب — أن توجه الحكومات هذه الموارد وهذه الأعمال نحو التشييد الاجتماعى . وسيكون من الأمور الظاهرة الخطورة والتبذير أن تبطل الحكومات استعمال هذه الآلات وهؤلاء الأشخاص . فقد تعلمت الآن بلا ريب معنى البطالة فى مصطلح الانحلال الاجتماعى . سيكون على الحكومات أن تنظم العالم ، وأن تعد خطة للسلم وتمهد سبيله ، سواء أشاءت هى ذلك أم لم تشأ .

ولكن سيسأل سائل : « وأنى لك المال اللازم لذلك ؟ » ولكى نجيب على هذا السؤال يجب أن نردد هذه الحقيقة : أن النقود وسيلة لا غاية . سيكون العالم مالكا للمادة والأيدى اللازمة لتجديد ظروف حياته فى كل مكان . إن هذه المادة وهذه الأيدى تحيط بك فى كل مكان ، وإنها تصرخ الآن طالبة أن تستعمل . إن وظيفة نظام الاعتمادات النقدية الحالى هى أن يجمع بين العامل والمادة ، وأن يجعل اتحادهما منتجاً ، أو هكذا كانت وظيفته على كل حال . وبهذه العلة برر ذلك النظام نشاطه دائماً ، وبها أثبت وجوده ، وإذا لم يوجد لذلك الغرض فلأى غرض يوجد إذن وأى حاجة بعد إليه ؟ إذا وقف الجهاز الاقتصادى اليوم وواجهنا بإعلان عجزه ، فمعنى ذلك أنه ينزل عن وظيفته .

وإذن فعليه أن ينأى عن سبيلنا . إنه سيعلن أن « العالم » قد وقف ، إذا كانت الحقيقة أن « المدنية » هى التى وقفت . لم يفشل سوى مكتب الحسابات . وقد أخذ عدد متعاظم من الناس يسألون منذ زمن طويل عن مكتب حسابات العالم ، متغلغلين فى نهاية الأمر إلى أسئلة أساسية مثل : ما النقود ؟ ولم وجدت المصارف ؟ ومن الأمور المزعجة ، والباعثة على التفكير أيضاً ، أن هذه الأسئلة لم تصادف جواباً واحد جلياً .

وقد يظن المرء أنه كان من المنتظر قبل أن يحدث هذا بزمن طويل ، أن يتقدم أحد كبار رجال المصارف الكثيرين بتبرير واضح بسيط للأعمال النقدية اليوم . كان من المنتظر أن يرينا أن نظام الاعتمادات النقدية هذا

نظام معقول جدير بالثقة . وكان من المنتظر أن يرينا ما به من اختلال مؤقت ، وكيف نصلحه مرة أخرى حتى يعود إلى العمل ، شأن الكهربائى حين تنطفىء الأنوار . وكان من المنتظر أن يخلصنا من مشاكلنا المقلقة المتزايدة بصدد نقودنا التى فى المصرف ، ومدّخراتنا التى خزناها كدأب السنجاب الصغير ، وممتلكاتنا التى تشبه حزام النجاة الآخذ فى الانكماش ، والتى كنا نتخذها وسيلة لضمان استقلالنا حتى النهاية . لكن لم يظهر اقتصادى كالذى وصفناه ، وليس ثمة من يمكن أن يسمى « متطرفا » متأخراً . وإن كثيرين وكثيرين منا لتتفتح عيونهم على تلك الحقيقة ، وهى أن ذلك النظام ليس نظاماً ولم يكن قط نظاماً ، وأنه مجموعة تقاليد وعادات وتطورات ثانوية ووسائل حلت محل أخرى مجموعة تتقرقع الآن وتتداعى ، ثم تتقرقع وتتداعى ، وتبدى كل علامة تنم عن انهيار اجتماعى تام مخيف .

وقد كان كثيرون منا يعتقدون حتى اللحظة الأخيرة أن هناك مكتب حسابات عالمياً موزعاً بين المصارف وإدارات المدن ، فيه دفاتر للحسابات ربما كانت كثيرة العدد شديدة التعقيد ، ولكنها فى آخر الأمر حسابات مضبوطة . والآن — لا قبله — تتفتح عيون الناس الطيبين المستريحين على هذه الحقيقة : وهى أن مكتب الحسابات مضطرب أشنع الاضطراب ، فهناك مجلدات قد فقدت ، وإضافات قد زيدت ، وإضافات ضلت القائمة وسجلات كتبت بحبر طيار . . . .

لقد ظهر منذ سنوات أدب عظيم تام موضوعه النقود . وهو أدب متنوع أشد التنوع ، ولكن فيه صفة عامة مميزة . فهناك أولاً عرض سريع للنظام القائم يرمى إلى إثبات خطأ هذا النظام ، ثم هناك شرح مطوّل لنظام جديد صحيح . فلنعمل هذا أو لنعمل ذاك ، « فلتملك الأمة نقودها » كما يقول أحد أنبياء الإذاعة فى جد وإلحاح وبساطة ، فتستقيم لنا كل الأمور . وهذه النِّحَل المختلفة تصدر الدوريات ، وتنظم الحركات (ذات الأقمصة الملونة) ، وتجتمع ، وتتظاهر ، ويتجاهل بعضها البعض تجاهلاً تاماً ، ويناقض كل منها الآخر مناقضة صريحة . وجميع هؤلاء المصلحين النقديين بغير استثناء تبدو عليهم علامات الإجهاد العقلى الشديد .

وسر الاضطراب فى عقولهم هو أن « خطتهم » الصحيحة ، ذلك الدواء الذى يشفى من كل داء ، قد تفشل لسبب خفى دفين إذا هى وضعت موضع التجربة . وكفاحهم الباطنى ضد هذا الشبح الذى لا يحتمل يظهر فى سلوكهم الخارجى . فخطاباتهم وكتبهم — لا تكاد تستثنى منها شيئاً — تشترك مع الخطابات التى يكتبها المجانين فى كثرة اعتمادها على الحروف الكبيرة والعبارات المفزعة . هم يصيحون لأقل إثارة أو لغير إثارة ، وليس صياحهم موجهاً إلى القارىء المحنق الذى يظل عنيداً فى حين يعرضون عليه الأمر بكل جلاء — بكل جلاء ، قدر ما هو موجه إلى الهمس المتلجلج فى صدورهم .

لأنه لا يوجد نظام نقدى كامل فى نفسه ولا يمكن أن يوجد مثل هذا

النظام . إنه حلم مثل إكسير الحياة أو الحركة الدائمة ، وهو من طرازهما في التفكير .

وقد سبقت الإشارة عند بحثنا لمقترحات المستر شتريث عن الاتحاد الآن إلى أن النقود تختلف فى طبيعتها وعملها باختلاف نظرية الملكية والتوزيع التى يقوم عليها المجتمع ، وإلى أنها فى الجماعية التامة مثلا لاتعدو أن تكون صكا يقدم إلى العامل ليبتاع به أى شىء يريد من ثروة المجتمع وكل فصل لناحية من نواحى الإنتاج أو العمل عن الإشراف الجماعى (القومى أو المدنى) يزيد من الوظائف التى يمكن أن تستخدم فيها النقود ، ومن ثم يجعل من النقود شيئاً آخر غير الذى وصفناه . وعلى هذا يمكن أن توجد أنواع لانهاية لها من النقود ، طراز من النقود بعدد طراز النظام الاجتماعى وأشكاله . فالنقود فى روسيا السوفيتية أداة تختلف عن النقود فى ألمانيا النازية ، والنقود فى ألمانيا النازية تختلف أيضاً عن النقود الفرنسية أو الأمريكية . ويمكن أن يكون هذا الفرق شاسعاً كالفرق بين الرئتين والزعانف . وليس كما يظن كثير من الناس فرقاً كمياً وحسب بحيث يمكن لأمه بتغيير نسبة الاستبدال أو بشىء من هذا القبيل ، بل هو أعمق من ذلك ، فهو فرق فى الصفة والنوع . وإن مجرد التفكير فى ذلك ليبعث القلق والاضطراب والجزع فى نفوس رجال المال والأعمال عندنا فإذاهم ينقّلون قضبانهم الذهبية من هذا القبو إلى ذاك ، آملين وراء كل أمل ، ألا يعود أحد إلى الحديث عن ذلك الأمر . لقد كان من

المسلم به أن النقود متشابهة فى العالم كله ، فكيف يعترفون بأن هذا الفرض لم يعد يصلح أساساً للعمل الآن ؟

وقد جنى بعض الأذكياء فوائدمعينة حين فهموا بشىء من التحديد — طبيعه النقود المتغيرة . ولكن بما أن المرء لا يمكنه أن يعذر متمولاً أو مدير أعمال إذا لم ينطو على الإيمان بحقه فى الاستفادة من ذكائه الممتاز ، فإن هؤلاء الأذكياء لم يجدوا ما يدعوهم إلى التحدث بما فهموه . لقد نالوا أرباحهم وعلى الدنيا السلام .

إذا فهمنا هذه الحقيقة — وليس فهمها بالشىء العسير — وهى أنه يمكن أن يوجد ، و يوجد فعلا ، أنواع مختلفة من النقود ، تتبع الأساليب الاقتصادية المعمول بها ، أو النظام الاقتصادى المعمول به ، ولا يمكن فى الحقيقة استبدالها — إذا فهمنا هذه الحقيقة وضح لنا أن نظاماً عالمياً جماعياً ، قانونه الأساسى هو إعلان للحقوق كالذى رسمناه ، مثل هذا النظام العالمى الجماعى يجب أن يزاول عملياته الرئيسية الأولية على الأقل بنقود عالمية جديدة ، نقود ابتكرت له خاصة ، مختلفة فى طبيعتها عن أى نوع من النقود المألوفة المتعارفة ، التى قامت فيما سبق بحاجات الإنسان وستصدر هذه النقود الجديدة على إنتاج المجتمع القابل للشراء ، إزاء خدمات العمال للمجتمع . ولن يكون الداعى للذهاب إلى المدينة للاقتراض أعظم من الداعى للذهاب إلى عراف دلفى لاستشارته فى هذا الشأن .

وقد يبدأ ظهور مثل هذه النقود الجديدة بدءاً سريعاً فى طور الأزمة

الاجتماعية والاشتراكية الاضطرارية ، وهو الطور الذى نمر به الآن على اليقين . فحين يستحيل على الحكومات أن تلجأ إلى وسائل مكتب الحسابات المالى المعقدة ، قد تلجأ إلى طريق مختصر لدرء العوز الذى أصابها ، فتضع يدها على ما تستطيع الوصول إليه من الموارد القومية للثروة ، وتستخدم الأيدى المعطلة عندها بواسطة هذه الصكوك الجديدة . لعلها تأخذ فى تنظيم المقايضة الدولية على نطاق واسع . وسوف يتضح ارتباك مكتب الحسابات نتيجة تجاهله لطبيعة النقود المتغيرة ، بمقدار تناقص أهمية هذا المكتب .

وسوف تذوى البورصة والقروض المصرفية ، وسائر أنواع الإقراض والربا والمضاربة ، سوف تذوى هذه الاشياء جميعاً برسوخ النظام العالمى الجديد ، فإذا ما رسخ ، ومتى ما رسخ فسوف ينقضى طورها ، وتحل محلها أشياء أخرى أرقى منها ، كما انقضى طور البيضة والغشاء الجنينى . ولا يجوز أن نتهم من ابتكروا هذه الأساليب والنظم ونفذوها ، ونرميهم بالنذالة والخبث ، فقد كانوا أمناء على قدر علمهم وقدرتهم ، وكانوا جزءاً ضرورياً فى عملية إخراج الإنسان من كهفه وإنزاله عن شجرته . وسوف يُطْلَق الذهب ، تلك المادة الثقيلة الحبيبة ، من أقبيته ومخابئه ، ليستخدمه الفنان والصائغ ، ولعله يطلق بسعر أقل كثيرا من سعره الحالى .

إذن فمحاولتنا فى رسم نظام العالم المقبل هى محاولة لرسم صورة من النشاط الإنسانى عريضة دائمة الاتساع . ونستطيع أن نقدر تغيراً سريعاً

لوجه الأرض حسب إعادة توزيع سكانها مرة بعد مرة وفق الضرورات المتغيرة للانتاج الاقتصادى .

ولا يقتصر الأمر على وجود ما يسمى بنقص المساكن فى كل صقع من أصقاع الأرض ، بل إن كثيراً من المساكن القائمة لا تصلح — حسب المقاييس الحديثة — لسكنى الإنسان . ويندر أن توجد مدينة فى العالم القديم أو الحديث لا تحتاج إلى أن يهدم نصف مساكنها . وقد تشذ ستوكهولم عن هـذه القاعدة إذا أعيد تنظيمها فى عهد اشتراكى . وكانت ڤينا تبشر بمستقبل طيب إلى أن حطم روحها دلفوس والرجعية الكاثوليكية . أما فيما عدا ذلك فوراء بضع مئات من الطرق الكبرى والشوارع العظيمة . والكرانيش المشرفة على البحر أو على النهر ، والقباب والقلاع وما شابهها، وراء ذلك أحياء قذرة وأعشاش وضيعة تشوه الطفولة وتهوى بالكبار وتستنزف حياتهم . إنك لا تستطيع القول إن الناس يولدون فى مثل هذه البيئة إنها نصف ولادة .

وسوف يكون من السهل أن نثير بمعاونة الصحافة والسينما اهتماما شعبيا عالميا وتحمسا للنماذج الجديدة من المنازل والمعدات ، تلك النماذج التى أصبحت الآن ميسورة لكل إنسان . وهنا يمكن أن يوجد مجال للوطنية المدنية أو الإقليمية ، للعار المحلى أو للفخار المحلى أو للجهد المحلى . وهنـا يمكن أن توجد مادة للمناقشة والجدل . فحيثما تيسر للناس الغنى والقوة والحرية ، اتجهت أفكارهم إلى العمارة وغرس الحدائق . هنا يمكن أن يوجد

دافع جديد للأسفار ، هو رؤية ماتصنعه المدن الأخرى والأرياف الأخرى
سوف يعمل الرجل العادى فى عطلة ما كان يعمله اللورد الانجليزى فى القرن
السابع عشر . سوف يتم رحلته الكبرى و يعود من أسفاره ومعه رسوم
وأفكار فى العمارة يطبقها فى وطنه . وسوف يكون هذا البناء المتجدد عملية
مستمرة ، وشغلا مستمرا ، يسير من حسن الى أحسن كلما تغيرت مراكز
القوى الاقتصادية وفق الاستكشافات الجديدة ، وكلما اتسعت أفكار
الناس .

ومن المستبعد فى عالم تتزايد فيه الضرورات وترتفع المستويات أن يرغب
الناس العيش فى منازل ظاهرة القدم ، أكثر من رغبتهم أن يعيشوا
فى ملابس بالية . وأظن أنه لن توجد مبان كثيرة تجب المحافظة عليها ،
فيما عدا قليلا من الأماكن الريفية حيث ارتبطت الأبنية ارتباطا وثيقا
بجمال الإقليم ، وأصبحت كأنها أشياء طبيعية ، أو حيث تجلت بعض المدن
العظيمة على العالم بآية من آيات الفن . وقد تقدمت المنازل المتنقلة تقدما
كبيراً فى السنوات الأخيرة فى البلاد الواسعة المكشوفة كالولايات المتحدة
فالناس يجرون منزلا سياراً وراء عرباتهم ، و يصبحون بدواً رحلا ...
على أنا لا نحتاج إلى مزيد من القول فى باب لا تنتهى امكانياته . ولعل
ألوفا من أولئك الذين اشتركوا فى أعمال اخلاء المدن وترحيل السكان
— تلك الأعمال الهائلة غير المنظمة التى تجرى فى هذه الأيام — لعل هؤلاء
قد تنبهوا إلى امكان القيام بكل ذلك على وجه أفضل ، لو أنه أدى بروح

جديدة ، ولغرض غير الذى يؤدى له الآن . ولعل عدداً كبيراً من الشبان ومن فى حكمهم قد أصبحوا قابلين للعدوى بهذه الفكرة ، فكرة تنظيف العالم وتنظيمه من جديد . وربما وجدنا أولئك الشبان الذين يكبون الآن على الخرائط ، ويخططون الملحقات والحـدود الاستراتيجية ، وخطوط ماجينو الجديدة ، ربمـا وجدناهم بعد قليل يخططون توزيعا سليما طيبا للطرق وأحياء السكنى ، طبقا لهذه البقعة الهامة التى تمد العالم بالنفط ، أو لتلك البقعة التى تمده بالقمح أو بالقوة المائية . إن هذين العملين طراز واحد من التفكير ، ولكنه استخدم هنا على وجه أفضل .

مثل هذه الاعتبارات كفيلة بأن تجعل لنظامنا العالمى المأمول أسساً طيبة من النشاط . ولكنا لسنا جميعاً مهندسين و بنائين ؛ فهنـاك نماذج كثيرة من العقول ، وكثير من أولئك الذين يدربون أو يتدربون على الأعمال الحربية التى تحتاج إلى مهارة خاصة ، أو على تنمية الروح الحربى ربما كان كثير من هؤلاء أميل إلى المضى فى عمل تعليمى خالص . وبهذه الطريقة يتيسر لهم أن يشبعوا شوقهم إلى السلطان و إلى الخدمة النافعة . ولسوف يواجهون عالما ذا حاجة ماسة إلى مزيد من المعلمين ، بل إلى مزيد من المعلمين النابهين الملهمين . ستكون ثم حاجة فى كل مستوى من التعليم من روضة الأطفال إلى المختبر ، وفى كل جزء من العالم من كابريكورينا إلى ألسكاد من الشاطئ الذهبى إلى اليابان ، ستكون ثم حاجة إلى العاملين المجدين لتهيئة العقول للنظام الجديد ، ولحل مشاكل الارتباط الإنسانى

التى ستنشأ ، وهى مشاكل عديدة لا نهاية لها . وهنا طريق آخر للعمل يستطيع ملايين الشبان أن يجدوا فيـه مخرجا من الركود والكبت اللذين أرهقا أسلافهم عند ما كان النظام الجديد يشرف على نهايته .

وسيحتاج العمل البوليسى فى العالم إلى طائفة من الشبان الأقوياء العزم القادرين على فرض إرادتهم . وسوف يكون هؤلاء أميل إلى السلطـان وأرغب عن التعليم أو عن أعمال الخلق والابتكار من إخوانهم . وسيصدق المثل القديم على النظام الجديد كما صدق على ما قبله ، فيكون العالم محتاجا إلى كل صنف من الناس . فليس لمثل هذه الحالة إلا أحد طريقين : إما أن تضطر هذا النموذج من الطبائع إلى الائتمار بالنظام الجديد ومحاربته ، أو تكبته إن استطعت ؛ وإما أن تستخدمه وتكسبه وتركن إليه ، وتجعل من ورائه قانوناً يحترمه ويفرض سلطانه . إنهم يحتاجون إلى نوع من الولاء وسيجد هذا الولاء خير إشباع له فى خدمة النظام العالمى . وقد لاحظت فى أثناء رحلاتى الجوية أن الطيارين من جميع الشعوب يشتركون فى صفات عامة متشابهة ، وأن الحمية الوطنية فى دمهم تعادلها مهنية واسعة . أما الآن فالمستقبل الذى يداعب أنظار الطيار الشاب هو أن يفنى فى صراع مستمر شديد قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين . وإنى لأعجب كيف أن كثيراً منهم يطرب حقا لهذه الفكرة .

ولسنا مسرفين إذا توقعنا أن يتبع إلغـاء التسلح نحو بوليس عالمى ، تكون أعظم قوته فى الجو . ويدل على سهولة محو الفروق الوطنية بين رجال

البوليس الجوى ما يلاحظ فى الدوريات الجوية التى تطوف بحدود الولايات المتحدة وكندا ، وقد نبهنى الرئيس روزفلت إلى هذه الدوريات فهذه الحدود يكثر فيها التهريب ، والطائرات تقوم الآن بدور هام فى القضاء عليه . وكان لكل من الولايات المتحدة وكندا طائراتهما الخاصة فى أول الأمر ، ثم غلبت عليهما موجة من التعقل فأدمجت المصلحتان كل فى الأخرى وكل طائرة تحمل الآن ضابطا من ضباط الضرائب من الولايات المتحدة ، وآخر من كندا . وعند ما تكشف بضاعة مهربة تهبط الطائرة ، ويتولى أحد الضابطين العمل ، حسب وجهة البضاعة المهربة . هنا نجد مثالا لجهاد العالم فى سبيل الوحدة الجماعيـة ، سالكا سبيل التحالف أو الاتحاد . ولا شك أن بوليسا دوليا قوته الرئيسية فى الجو ، سيحتاج إلى التعاون الوثيق مع غيره من إدارات البوليس . يجب أن يكون البوليس قادراً على الطيران إلى أى مكان ، فى عالم يستطيع فيه المجرمون أن يطيروا إلى أى مكان . ولدينا الآن شبكة من الرجال الأكفاء ممتـدة فى العالم كله ، تحارب تجارة الرقيق الأبيض وتجارة المخدرات وما إليهما . وإذن فالشىء الذى نتحدث عنه يبدأ الآن فعلا .

وأنا أكتب كل هذا لكى أقدم مادة للتفكير إلى أولئك الذين لا يرون النظام المقبل سوى علامة استفهام مجردة . والناس يتكلمون بهراء كثير عن اختفاء البواعث فى ظل الاشتراكية . والعكس هو الصحيح . فتملك موارد الثروة الطبيعية تملكاً خاصاً هو الذى يسلب

الأغنياء القوة الدافعة والفقراء الأمل . و إعلاننا للحقوق الإنسانية يضمن للإنسان إشباع جميع حاجاته الأولية إشباعاً طيباً بالمادة اللازمة لذلك ، لا أكثر . فإذا كان يريد المزيد فعليه أن يعمل من أجله . وكلما كان صحيح الجسم حسن المأكل والملبس كان أكثر عزوفاً عن الكسل وأعظم رغبة فى العمل . و إنى أشير إلى ما يمكنه عمله إشارة مقتضبة ، وهذا هو غاية ما يستطيعه المرء الآن . فنحن نستطيع أن نتكلم عن المبادىء العامة التى ستعالج هذه الأمور على أساسها فى اشتراكية عالمية آخذة فى الثبات والاستقرار ، ولكننا لا نكاد نجرؤ على تقدير الأشكال التفصيلية ، والمظاهر الكثيرة المتنوعة ، فسوف يحدد هذه الأفكار الأولية عدد متعاظم من أذكياء الناس .

لكن هناك إشارة واحدة بصدد البناء الاجتماعى ، قد يكون من الضرورى إدماجها فى صورتنا . وقد كان أول من لمسها — فيما أعلم — هو ذلك المفكر الشجاع الدقيق الأستاذ وليم جيمس فى كتاب صغير عنوانه : معنى الحرب فى الأخلاق . وقد أشار إلى أننا قد نكون فى حاجة إلى شعور بالواجب ، يساير فكرة الحق ، حتى يكون فى حياة كل مواطن سواء أكان رجلاً أم امرأة ، شىء يثير فيه إحساس الدين الشخصى للدولة العالمية والملك الشخصى فى الدولة العالمية . وربط بين الفكرة السابقة وبين هذه الحقيقة : وهى أنه سيظل فى كل نظام اجتماعى يمكننا أن نتصوره ، كثير من الخدمات الضرورية لا يمكن بأية وسيلة أن تحبّب

إلى النفوس فتختارها على أنها مهنة عادية دائمة مدى العمر . ولم يكن يفكر فى مشاكل الجهد الآلى التى تتضاءل الآن بسرعة ، قدر ما كان يفكر فى بعض الأعمال الثقيلة على النفس كعمل السجان والحارس فى مستشفى المجاذيب ، وكرعاية الشيوخ والعجزة والتمريض إطلاقاً ، وكالأعمال الصحية والطبية ، وكبقية من "الروتين" الكتابى ، وكالاستكشافات والتجارب الخطرة . ولا شك أن طبيعة الخير فى الإنسان كفيلة بأن تمدنا بالمتطوعين فى كثير من هذه النواحى ، ولكن هل للباقين منا أن يستفيدوا من تفانى هؤلاء ؟ كان الحل الذى انتهى إليه وليم جيمس هو التجنيد الإجبارى فترة من الحياة بعد أن يبلغ الإنسان سن الرشد . سيكون على الشبان أن يؤدوا من الخدمات و يتجشموا من الأخطار ما تتطلبه مصلحة العالم . وسوف يستطيعون أن يؤدوا هذه الأعمال بعضاء من يعلم أن سيطلق سراحه بعد حين ، ومن يجد الفخار فى القيام بعمله على أكمل وجه . ولن يتعرضوا لذلك الإغراء المميت ، الذى يزين للناس الكسل والبلادة والخمود محافظةً على النفس ، والذى يصيب كل من دفعتهم الحاجة إلى هذه المهن بلا أمل فى الخلاص .

ومن الجائز جداً أن تشغف نسبة معينة من هؤلاء المجبذين بالعمل الذى تقوم به . فقد يختص حارس مستشفى المجاذيب فى الطب النفسى . والممرض فى المستشفى قد يتملكه ذلك التطلع الذى يكمن فى الفسيولوجى العظيم ، والعامل فى المحيط المتجمد قد يشغف حباً بصحرائه الجليدية . .

وهناك احتمال رئيسى آخر للنظام العالمى الجماعى تجب الإشارة إليه هنا . وهو الزيادة الهائلة فى البحث والاستكشاف سرعة وكماً . وأنا أكتب « البحث » ولكنى أعنى به ذلك الهجوم المزدوج على الجهل ، الهجوم البيولوجى والفيزيقى الذى يسمى عادة « بالعلم » . لقد انحدرت إلينا كلمة « العلم » من تلك العصور الأكاديمية المظلمة ، حين اضطر الناس إلى أن يعزوا أنفسهم عن جهلهم بادعاء أن فى العالم قدراً محدوداً من المعرفة ، وحين اختال عليهم رجال ذوو قبعات ودثر ، ومنهم العالم الذى يعرف قدراً محدوداً ، والأستاذ الذى يعلم قدراً هائلاً ، والدكتور ذو الدثار البنى الذى يعلم كل ما يستطاع علمه . أما الآن فجلى أن لا أحد منا يعلم كثيراً ، وكلما أمعنا النظر فيما نظن أننا نعلمه ، وضحت لنا أشياء مجهولة متوارية بين فروضنا .

ولقد كانت عملية البحث هذه التى نسميها « دنيا العلم » مقصورة حتى الآن على عدد قليل من العاملين ، وإنى لأزعم أن العقول القادرة على أن تضيف إلى الفكر العلمى والإنتاج العلمى آثاراً عظمية رائعة — العقول التى تشبه اللورد رذرفورد أو داروين أو مندل أو ليوناردو أو جاليليو — لا يولد منها فى عالمنا هذا واحد من ألف بل واحد من عشرين ألفاً فى ظروف تساعده على تحقيق فرصة . والباقون لا يتعلمون قط لغة متمدنة ، ولا يقتربون قط من مكتبة ، ولا يجدون قط فرصة — مهما كانت ضئيلة — لإدراك أنفسهم ، ولا يسمعون قط النداء . انهم لا يصيبون

ما يكفيهم من غذاء ، ويموتون شباناً ، ويُستخدمون فيما لا يصلح لهم . أما الملايين الذين يمكنهم أن يعاونوا معاونة طيبة نافعة دءوباً في البحث والكشف ، فلا يُنتفع منهم بواحد في المليون .

والآن أنظر كيف تكون الأمور لو أن لدينا تعليما منشطاً للذهن محدداً لحياة العالم بأسره ، ولو أن لدينا بحثاً منظماً دائم التحسن عن الكفاءة العقلية الممتازة ، وشبكة دائمة الامتداد من الفرص لتحقيق هذه الكفاءة . ولنفرض أن في الرأى العام قدراً كبيراً من الاحترام للآثار العقلية ونقداً شديداً للتزييف . لو كان الأمر كذلك لبدا لنا ما نسميه بالتقدم العلمى الحاضر تقدماً مسكيناً متردداً قلقاً ، إذا قورن بما يمكن أن يحدث في تلك الظروف السعيدة .

ولقد أنتج تقدم البحث والكشف نتائج بارعة رائعة في القرن ونصف القرن الماضيين ، حتى أن قليلا منا يدركون صغر العدد الذى تولى ذلك من الرجال الممتازين ، ويعلمون من يتبع هؤلاء القادة من أشخاص ثانويين ، يصلون في النهاية إلى إخصائيين نفورين بؤساء لا يكادون يجرءون على مواجهة موظف عام . هذا الجيش الصغير الذى هو دنيا العلم في هذه الأيام ، والذى لا أظنه يعدو من رأسه إلى ذنبه ، أى إلى آخر غاسل قنينته ، مائتى ألف رجل — هذا الجيش سوف تمثله بلا ريب في نظام العالم الجديد قوة من ملايين ، أحسن عدة ، وأوفر نظاما ؛ لهم أن يسألوا ، ولهم أن يطلبوا إتاحة الفرصة لهم . ولن يكون جهدهم خيراً من

جهدنا — الذى لا يسمو عليه جهد — ولكنهم سوف يكونون أكثر عدداً ، وسوف يكون ذلك الجيش من المستكشفين والمعدنين والمجربين والقاموسيين ، ما بين مقسمين ومنظمين ومفسرين ، على قوة وكبرياء وثقة تجعل معامل اليوم أشبه بمغارة الكيميائى .

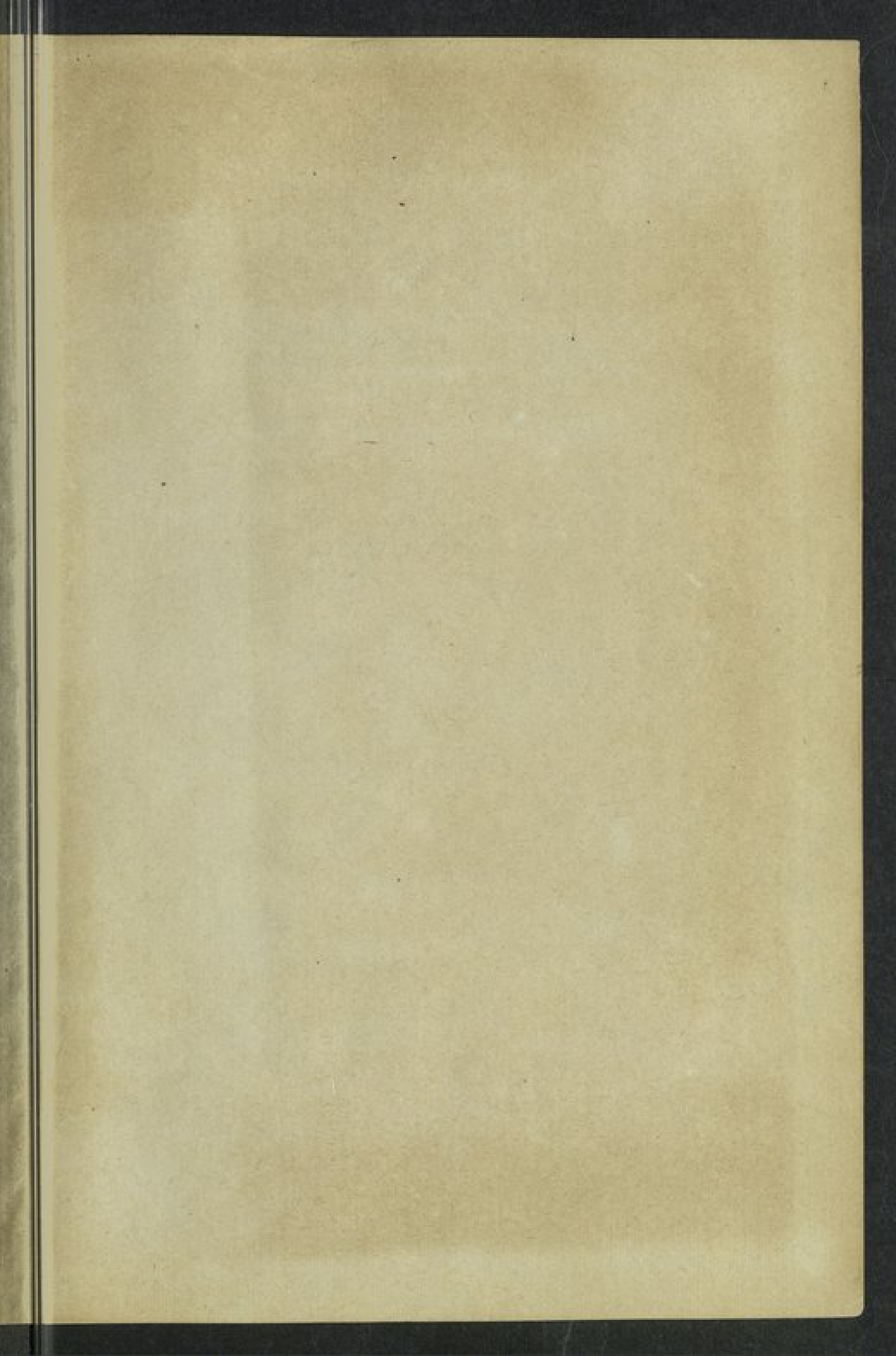
هل يستطيع أحد أن يشك فى أن « دنيا العلم » سوف تتفتح على هذا النمو عند ما تتحقق الثورة ، وأن سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وعلى طبيعته هو ، وعلى هذا الكوكب الذى ما زال مجهولا ، سوف تشتد سرعتها بمضى السنين ؟ لا أحد يستطيع أن يتنبأ أى الأبواب ستفتح عندئذ ولا أى العجائب ستطل على هذه الأبواب .

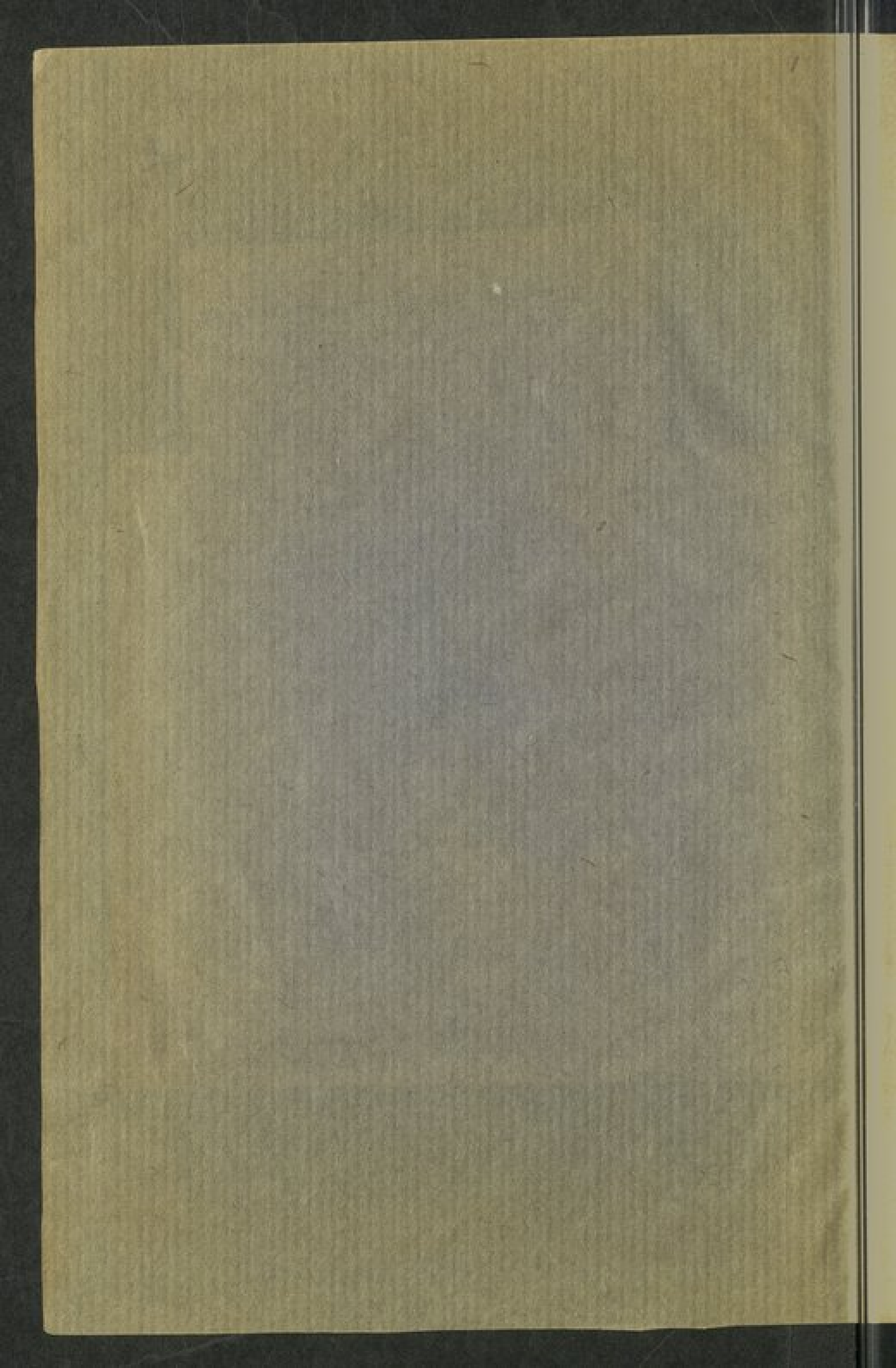
هذه شذرات مختصرة عن تلك الحياة الواسعة التى يستطيع النظام العالمى الجديد أن يفتحها للبشر . ولن أطيل التفكير فيها حتى لا يقال عن هذا الكتاب إنه مثالى أو خيالى أو ما إلى ذلك . إنى لم أضع فيه شيئاً يجانب العقل أو يتعذر عند التطبيق . إنه أسلم الكتب منطقاً وأقلها ابتكاراً وأظن أنى قد كتبت ما يكفى لكى أدل على استحالة أن تبقى شئون العالم فى مستواها الحاضر . فإما أن تنهار البشرية وإما أن يجاهد نوعنا صعداً فى تلك السبل الشاقة التى جمعتها فى هذا الكتاب ، والتى يمكن أن تعد رغم تشتتها سبلا واضحة ، حتى يصل إلى مستوى جديد من التنظيم الاجتماعى . ولا جدال فى وفرة الحياة وروعتها وقوتها ، تلك الحياة التى تنتظر أبناءنا على هذه الأرض الموعودة . هذا إن بلغنا

تلك الأرض أما إن قصرنا عنها فلا جدال بعدئذ فى انحطاطهم وتعاستهم .

ليس فى هذا الكتاب شيء جديد حق الجدة . ولكن به نوعاً من الجرأة فى ضم الحقائق التى تجنب كثير من الناس جمعها حتى لا تكون مزيجاً منفجراً . ولعلها تنفجر . لعلها تخترق بعض الأسوار العقلية العنيدة ورغم إمكان هذا الانفجار ، أوضرورة هذا الانفجار ، فإن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون جمعاً وهضماً وتشجيعاً للأفكار السائدة الآن ، والتى ما تزال مترددة رغم ذلك . إنه تقرير واضح للثورة التى يوجه الفكر إليها مزيداً من العقول حينا بعد حين ، وإن ظلوا عاجزين عن الاضطلاع بها . وقد أكدت خطورة الحال فى « مصير الإنسان » ، وجمعت هنا الأشياء التى يستطيعون أن يعملوها ، والتى يحتاجون إلى أن يعملوها . نخير لهم أن يجمعوا عزيمتهم .










AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

